دراسات فى الفكر الاسلامى

الكتاب الثانى

اشراف

الدكتور ماهر عبد القادر محمد

إسهام المسلمين فى الحضارة

تأليف

حيدر بامات

ترجمة وتقديم

دكتور

ماهر عبد القادر محمد على

الناشر

المركز المصرى للدراسات والابحاث

سابا باشا ـ اسكندرية

اسهام المسلمين فى الحضـــارة

دراسات فى الفكر الاسلامى
اشراف
الدكتور ماهر عبد القادر محمد

الكتاب الثانى

إسهام المسلمين فى الحضارة

تأليف
حيدر بامات

ترجمة وتقديم
دكتور
ماهر عبد القادر محمد على

الناشر
المركز المصرى للدراسات والابحاث
سابا باشا ـ اسكندرية


بسم الله الرحمن الرحيم

اهــــــداء

الى المســلم المجـاهد الذى يدافع عن دينــه ...

الى كل من يعــلى كلمة الحق والــدين

مقـدمة تحـليلية

دراسة الحضارات من أخصب ميادين الفكر التى يمكن لمفكر أن يعنى بها • وأهمية دراسة الحضـارات ترجع الى أن الأمة اذا تمثلت فى وجدانها تراثها وحضاراتها وماضيها بكل أبعاده ، أمكن لمفكريها وعلمائها أن ينطلقوا الى آفاق التجديد والابداع • والحضارة تكشف عن ذاتها بصورة مستمرة فى الوعاء الثقافى للأمة من حيث ان الثقـافة هى ذلك الكل المركب الذى يشمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقـانون والعرف وكل القدرات والعـادات الأخرى التى يكتسبها الانسـان بوصفه عضوا فى المجتمع • ووفقا لهذه الفكرة يمكن القول بأن حضارة الأمة تبدو فى كل منجزاتها العقلية والجمالية والمادية ومظاهر الحيـاة الاجتماعية والاقتصادية والتربوية واللغوية والتشريعية ، وما يسود من معايير وقواعد أخلاقية •

ولذا فانه اذا أردنا أن ندرس حضارة من الحضارات كان علينـا أن نبرز كل هذه الجوانب ــ بقدر الامكان ــ فى حركاتها التقدمية التى دفعت بها الى الأمام ، ثم العوامل التى أدت الى وجود فجوة حضارية أو تدهور حضارى ، وموقف الأجيال من هذا • والذى لا شك فيه أن الحضارة العالمية ، وتطورها فى مراحل عبر تاريخ الانسان ذاته ، ينظر اليها كنتاج لتفاعل حضارات مختلفة نشأت وازدهرت فى بقاع مختلفة من العالم ، ولهذا السبب أيضا فانه غالبا ما ينظر للحضارات المختلفة على أنها فى اتصال كحلقات السلسلة الواحدة •

وقد حاول تايور أن يفسر لنا التدرج الحضـــارى من خلال فــكرة النمو التى تلعب دورها فى تشكيل تاريخ المستقبل حيث يقول : فان أمكن ظهور حضارة أمة بغتة على مسرح التاريخ فان ذلك لا يكون الا نتيجة نمو بطىء ولا يتم تطور الأشـــخاص والأمم والنظم والمعتقــدات الا بالتدريج ، ولا تباغ درجة التطور العالية التى تبدو للعيان الا بعــد الصعود فى درجات أخرى •

ان التاريخ يحدثنا عن حضارات عديدة وعريقة لمعت فى الأفق فى فترات مختلفة وفى أماكن مختلفة من العالم ، وقد أدت كل حضارة من تلك الحضارات الأدوار التى حددت لها فى تشكيل التاريخ الانسانى وقتئذ ثم اندثرت : كانت هناك حضارات للمصريين القدماء والاغريق والرومان والفرس والهنود وبلاد الصين ، وحضارات أخرى انطلقت من مواضع قرب جزيرة العرب مثل حضارة بابل وأشور والحضـــارة الفينيقية وحضارات أخرى غيرها فى أنحاء متفرقة من العالم ، ولم يكتب لأى منها الذيوع والانتشار عبر التاريخ ، اما لأنهــا كانت حضـــارات مغلقة فانطوت على نفسها ودارت حول مركز انطلاقها ، واما لقصورها على ميدان ضيق النطاق بحيث لم تتمسك بسبل الانتشـــار ، أو لأن أهلها لفظوها فتركت للعدم • هذا ما كان من شأن الحضارات القديمة التى طوتها سجلات التاريخ •

أما حضـــارة الاســـلام فكانت أعرق وأكثر كمالا ، وظلت خالدة ، وباقية عبر العصور تقاوم دائما وأبدا العبث والركود وعوامل الاهمال والهجوم والانكار والجحود ، وهذا التراث الاسلامى الخالد الماثل أمام العيان يحكى بعض جوانب الأمجاد الاسلامية ، بصورة تدعو للاعجاب •

والحديث عن حضارة الاسلام لا ينبغى أن يتصوره القارىء على

أنه من قبيل الماضى الذى حفظه سجل التاريخ وطواه ، وانما حضارة الاسلام معاصرة دائما ودوما ، فعناصر القوة والأصالة فى هذه الحضارة مستمدة من الدين الاسلامى الحنيف الذى حثنا على التفكير والتأمل فى كل زمان ومكان .

على أنه يمكن القول : ان انتشار الاسلام هو الذى أوجد الامبراطورية الاسلامية العظمى تاريخيا وطبعها الى يومنا هذا بطابعه وروحه . فالاسلام كما نعلم فرض نفسه عقليا ووجدانيا على كل الشعوب التى احتوتها الامبراطورية الاسلامية . وحين توالت الفتوحات الاسلامية شرقا وغربا ، شمالا وجنوبا لم يلبث الاسلام أن منح كل هؤلاء وأولئك المثل الأعلى مما جعلهم يبذلون أنفسهم رخيصة فى سبيل قيام امبراطورية الاسلامية .

حين نزل القرآن أعلن أنه قد نزل بالحق للناس جميعا ، وهنا رسم للناس قواعد الحياة العملية وقواعد الفكر والنظر ، وصور لهم الكون أبلغ تصوير ، فكان بذلك دستور المسلمين وروح حضارتهم . وبجانب القرآن الكريم وجدنا السنة النبوية التى تمثل كل ما صدر عن الرسول عليه الصلاة والسلام من قول أو فعل أو تقرير ، وصار الكتاب والسنة هما منهجا السلوك القويم .

لقد انطلق المسلمون فى شتى بقاع المعمورة يحملون القرآن والسنة ليخلصوا العالم من الفساد ، ويأخذوا بيد الانسانية الى طريق الحضارة ، حتى كان القرن الثانى الهجرى الذى شهد من الانجازات والابتكارات ما تعجز الأقلام عن وصفه ... عقلية مبدعة ، وفكر ناضج ، وبصر ثاقب وفن رائع ، وفلسفة شامخة ، كل هذا وأكثر نلتقى به منذ بداية القرن الثانى الهجرى .

والكتاب الذى نقدمه لقراء العربية اليوم يبدأ قصته الحقيقية بالعصر الذهبى للحضارة الاسلامية ، حيث يعرض لنا مؤلفه حدود بامات تطور الحضارة الاسلامية علما وفنا وأدبا منذ تأسيس مدرسة بغداد ، ويوضح لنا أن العصر العباسى يعتبر بحق عصر ازدهار حقيقى ، وهو يستشهد بالعديد من الأفكار والنصوص والاقتباسات التى استمدها من أولئك الذين كتبوا عن الحضارة الاسلامية .

ومن بين الآراء الهامة التى يقدمها لنا المؤلف عن مدرسة بغداد رأى سيد يلوت الذى يقرر بوضوح أن الروح العلمية الصادقة التى سادت هذه المدرسة هى التى زودت العلم بدفعات قوية وأضاءت الطريق أمام العلماء فيما بعد ، فى شتى بقاع المعمورة .

ويوضح لنا المؤلف أن الحضارة الاسلامية وجدت طريقها الى الهند فى عهد السلطان محمود الغزنوى ، كما أنتقلت الى السلاجقة عن طريق عمر الخيام فى حدود أوائل القرن الحادى عشر الميلادى ، ووصلت الى المغول والتمانيين ، بل وامتدت آثارها الى الصين فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى .

ورغم أن المؤلف لم يتعرض لحركة الاستشراق أساسا ، الا أنه يذكر لنا أن من الصعب على أى مستشرق أن ينكر الاسهام الخلاق للحضارة الاسلامية ، وهو يوضح لنا أيضا أن بعض المستشرقين قد يترددون فى الاعتراف بفضل الاسهام الاسلامى علميا ، ويقصرون دورهم على مجرد نقل التراث العلمى القديم ، ولكن الدراسات الحديثة أشارت فى وضوح تام الى أن علماء الاسلام لم يكونوا مجرد نقلة للتراث الاغريقى ، وانما هم أعدوا دراسة هذا التراث ، وحين نقل

الى أوربا تم هـذا من خلال الدراسـات التى أجريت حول التراث اليونانى •

ثم ينتقل المؤلف الى دراسة موضوع هام وهو كيفية غزو الحضارة الاسلامية للغرب والمسالك التى اتخذها هذا الغزو من خلال استعراض الاسهام الاسلامى فى شتى مجالات العلوم والفنون • ويبـدأ المؤلف فكرته الأساسية فى هذا الجانب بالاجابة أولا على السؤال : متى وصل الاسلام الى أوربا ؟ ثم يستتبع هذا بتحديد المسالك التى نفذ من خلالها الى العالم الغربى •

أما من ناحية وصول الاسلام الى أوربا فان الكاتب يستبعد منـذ البداية الذكرة الشائعة لدى الدارسين والقائلة بأن الحـروب الصليبية هى المسئولة بصفة رئيسية عن مثل هذا الالتقاء ، ويشير الى أن الحضارة الاسلامية دخلت أوربا عن طريق اسبانيا وصقلية وجنوب فرنسـا ، وقبل ذلك لعبت التجارة والحج الدور الرئيسى فى الالتقاء بين الحضارة الأوربية المسيحية والحضارة الاسلامية • والكاتب يقدم لنا العديد من الأمثلة التى تشير الى التقاء الغرب بالحضارة الاسلامية فكريا وماديا بعيدا عن التعصب والفرقة التى حاولت الحروب الصليبية بذر بذورها فى طريق هذا الالتقاء •

وحين ينتقل الكاتب لمعالجة اسهام المسلمين فى الحضارة ، نجـده منذ البداية يؤكد أنه سوف يشير الى الاكتشافات والأمثلة التى تدين أوربا بفضلها لحضارة الاسـلام • ولذا يستعرض الأمثلة المتعـددة للعلوم ، ومدى ما أحرزه الغرب من تقدم فيها من خلال الفكر والنظر الاسلامى ، فيوضح — ونحن نتفق معه فى هذا — أن الفلك والرياضيات

من بين العلوم الهامة التى استرعت انتباه علماء الاسلام ، ويبين على وجه الخصوص أن الخلفاء اهتموا بعلم الفلك اهتماما كبيرا سـواء فى الشرق أم فى اسبانيا ، ويشير كذلك الى عنايتهم ببناء مراصد فى بغداد والقـاهرة وقرطبة وبلد الوليـد وسمرقند • ويبرز أيضـا القيمـة التاريخية لاهتمام الخليفة المنصور بعلم الفلك ثم متابعة هذا الاهتمام فى عصر الرشيد والمأمون من بعده • والكاتب هنا يشير الى نمـاذج عديدة للكتابات والمؤلفين الذين اهتموا بعلم الفلك مثل البتانى وابن يونس والحسن بن الهيثم والبيرونى وغيرهم •

وأما فى مجال الرياضيات فنجد الاشارة الهـامة لكتـاب الجبر والمقابلة للخوارزمى ذلك المؤلف الذى يقول عنه جيرارد الكريمونى أنه « نبه معاصريهم من الغربيين الأوائل الى روعة الحسابات الجبرية وفى نفس الوقت نبههم الى حساب الكسور العشرية » • وكذلك يشير المؤلف الى روعة الاسهام الاسلامى فى حساب المثلثات ومعرفة الجيب وجيب التمام والظل ، وفضل المسلمين فى اختراع الصفر الذى أحدث انقلابا ثوريا فى الرياضيات •

وأما فى مجال علم الطبيعة فان المؤلف يستشهد باسهامات الحسن ابن الهيثم الرائدة فى مجـال البصريات حيث يعتبر مؤلفه بداية العـلم الحديث فى علم الضوء •

وهـكذا نجد المؤلف يعـالج الموضوعات المختلفة فى مجـال العلوم الطبيعية والطب والكيمياء ومدى ارتباط الكيميـاء بالصيدلة وكيف أن مفـكرى الاسـلام اسـتطاعوا أن يستحدثوا فرعا جديدا من فروع الدراسات العامة والخاصة بتطبيق الكيمياء فى الصيدلة وهو ما نعـرفه بعلم الكيمياء الصيدلية •

لكن ينبغى لنـــا أن نشير الى بعض الافكار التى أوردها المؤلف فى مجـــال الدراســـات الانســـانية مثل الجغرافيـــة والتاريخ والسياسة والاجتماع ، فنحن نلاحظ فى مجال الجغرافية والتاريخ أن المؤلف يركز على أهمية الاضافة الاسلامية فى هذا المجـــال ، ويذكر أن هؤلاء كانوا شديدى الولع بالسفر والترحال ، فقد استطاعوا أن يجوبوا أنحـــاء العالم ، فكانت هناك زيارات متعددة للصين وافريقيا وأقصى آســـيا ، حيث تقع جمهوريات الاتحاد السوفيتى حاليا ، ويعطى دليلا على ذلك وهى قصة رحلة سليمان التى كتبها أبو زيد فى حدود القرن التاسع ، ويقدم بعض الأدلة على رحلات المسعودى المؤرخ الاسلامى المشهور ، ورحلات البيرونى والادريسى وابن بطوطة ، ويشير الى أن علماء اللاتين فى أوربا ظلوا يعتمدون لمدة أربعة قرون من الزمان تقريبا على الخريطة التى وضعها الرحالة العرب عن العالم ، ويشـــير أيضـــا الى أن هذه الخرائط بالاضافة الى غيرها من الكتابات ، كانت أمام الرحالة فى العالم الاوربى وساعدتهم كثيرا على اكتشاف أمريكا .

وأما فى مجـــال السياسة والاجتمـــاع فيبرز المؤلف الاســـهامات الاسلامية الرائدة فى هذا المجال ، ويركز على تعريف الفارابى للدولة ، وواجباتها نحو المواطنين ، ويذكر الصفات الهامةالتى أشار اليها الفارابى باعتبارها الأساس الذى ينبغى توافره فى الحاكم ، ثم يشير الى أهمية كتاب الاحكام السلطانية للماوردى ، ويعرض بعد ذلك لأفكار ابن خلدون وكيف أن هذه الشخصية أصبحت موضع اعجاب من قبل المفكرين فى العالم ؛ ويشير الىتعريفه للتاريخ وفكرة نمو الحضـــارات وازدهارها والآراء الاقتصادية التى أوردها وصلتها بالآراء السياسية الواردة فى مقدمته .

وأما فى مجال الهندسة المعمارية والفنون التشكيلية فيشير الكاتب الى أهمية الاسهام الاسلامى فى هذا المجال ، وروعة البناءات والعمارات الاسلامية ، والأثر المعمارى الذى تركته على التراث المعمارى المسيحى ، ويقدم لنا الدليل على ذلك متمثلا فى الأثر الواضح لمسجد قرطبة فى اسبانيا على البناء المعمارى لكنيسة روتردام . وهكذا يتتبع المؤلف الجوانب المشرقة للفكر الاسلامى فى شتى المجالات ، وهو بهذا العمل الرائد قضى على الافكار الغريبة والدخيلة على هذا الفكر ، وابرز الاسهام العلمى الحقيقى للعلم الاسلامى فى سياق الحضارة .

وأريد أن أنبه القارىء أن استعراض تاريخ العلم الاسلامى ، وانجازات الحضارة الاسلامية ، لا ينبغى أن يجعلنا نعيش فى الماضى ، وانما المقصود باستعراض هذا الفكر أن نأخذ العبرة والدروس من التاريخ .. أن نحاول التقدم لا أن نعيش على ما تركه الاسلاف . ففى التاريخ ودرسه ، عظة وعبرة لمن يطالع صفحاته بدقة .

والله الموفق سواء السبيل

دكتور ماهر عبد القادر محمد

بولكلى فى

أول ربيع ثانى ١٤٠٦ هـ

١٣ ديسمبر ١٩٨٥ م .

ملاحظات اولية



ملاحظـــات أوليــة

« ان العالم يقوم على أعمدة أربعة : حكمة العالم ، وعدالة العظيم وصلوات العابد وبسالة الشجاع» .

كان هذا الشعار منقوشـــا على مدخل الجامعـات فى اسبانيا فى العصر الاسلامى . ويلاحظ أن الحــكمة وضعت فى رأس القائمة ، ولا غرابة فى ذلك حيث أن الاسلام يمتدح العلم فى كثير من الآيات القرآنية وفى أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم : « أن حبر العالم لأثمن من دم الشـــهيد »[1] ، كمـــا يحث المؤمن على « أن يطلب العــلم ولو فى الصين »[2] .

وظل المسلمون على ولائهم لهذه العقيــدة على مدى قرون عديدة ويقول فيليب ك . حتى «طيـــلة النصف الأول من العصـــور الوسطى ، لم يسهم شعب فى تقدم البشرية كما أسهم العرب . وهذا اذا فهمنا أن كلمة«عرب»تعنىكلمن كانت لغتهمالعربية،وليس فقط من يعيشون فى شبه الجزيرة العربية ... فقد ظلت اللغة العربية هى لغة العلم والثقـافة والتقدم الفكرى لكل العالم المتمدن باســتثناء الشرق الاقصى . ومن القرن التاسع الى القرن الثانى عشر الميلادى كانت المؤلفات المكتـوبة بالعربية فى الفلسفة والطب والتاريخ والدين والفلك والجغرافيـا أكثر منها فى أى لغة أخرى » .

وخلاصة القول انه اذا أردنا الحصول على صورة دقيقة للحضارة الاسلامية فيجب تمثل أن هذه الحضارة لم يخلقها العـرب وحدهم ، لكنها كانت ولا تزال نتاج شعوب من أجناس مختلفة ولغـات مختلفة اجتمعت معا تحت راية الاسلام فى مجتمع روحى تخطى حدود قوميـة الارض أو الدم . وليس من العسير أن نميز فى الحضارة الاسـلامية مقدار ما أسهم به كل شعب من هذه الشعوب ولكن العامل الاساسى فى روح هذه الحضارة ، هو الاسلام .

ويعود الفضل فى هذه الوحدة الروحية الى الاسلام ، الى عقيدة التوحيد الراسخة التى منها نبعت القوانين الاسلامية التى حكمت حياة المؤمن العامة والخاصة .

كما يعود الفضل — الى مدى بعيد — الى سحر اللغة العربية .
والفكر اليونانى فى أسمى صورة ، كما يعبر عنه سقراط :
«انه ليس المولد بل التربية هى التى صنعت الحضارة الهلينية» .

عندما ندرك كنه المسلم الذى صهر فى بوتقة الاسلام ، فلن نستطيع انكار الدور الذى أدته اللغة العربية الساحرة ، بكل ما فيهـا من رقة واثارة وبيان ، والتى ظلت — نظير اللاتينية فى العالم المسيحى — ليست لغة الثقافة فحسب ، بل لغة التخاطب لكل البلاد الاسلامية .

وبوصفها لغة الدين [٣] فقد تركت أثرا بالغا فى جميع لغات العالم الاسلامى وكانت سيطرتها خلال العصور التى بلغت فيها الحضـارة الاسـلامية ذروتها درجـة قـال فيها فيليب حتى : «ان كل انسان فى

الامبراطورية الاسـلامية اعتنق الاسـلام وتكلم العربية كان يعتبر عربيا » •

أما الدور الذى أداه العرب فى الحضارة الاسلامية فدور كبير • ولا يستطيع أحد أن ينكر فضلهم فى تأسيس هذه الثقافة وبلوغهـا الذروة • ففى الواقع بلغت الحضارة الاسلامية ذروتها فى عصر هارون الرشـيد والمأمون ، حـوالى منتصف القـرن الحـادى عشر الميلادى، كمـا يعـود الفضـل الى العـرب فى الحضـارة الاسبانية المدهشة وازدهـارها ماديا فيما بين القرن التاسع والقرن الثانى عشر ، حينمـا كانت جامعات الاندلس مقصد العلماء من كل عالم الغرب ، والعرب هم الذين نقلوا الحضارة الاسلامية من اسبانيا الى سبتمانيا ومن المغرب الى صقلية ومنها الى جنوب ايطاليا •

ولكن بعد أن وفينا العرب حقهم ، فان من التنكر التاريخى للحق كمـا أنه من غير العدل أن نجحد الاسـهام المذهل الذى أداه لهـذه الحضارة شعوب آسيا الوسطى وايران وتركيا والامبراطورية المغولية فى الهند •

فمن المستحيل جحود دين الحضارة الاسلامية لعصر السلاجقة ، الذين لا يزال فى الامكان رؤية الآثار الرائعة التى خلفوها فى قونيـة ، والحضارة التيمورية فى آسيا الوسطى فى القـرن الخامس عشر حين اشتهرت مدن سمرقند وبخارى وحيرات كمراكز للعلم والثقافة ، كمـا أنه من المستحيل أيضا انكار دينها للسلطات الفارسية فى عصر السامانيين والبويديين وعلى الأخص أسرة السفيين (١٥٠٠ — ١٧٧٢) التى أعادت أمجـاد تاريخ مملكة فارس القديمة وأحيت من الزمان ، مجـد عصر

الساسانيين ، على مدى قرنين اعتبرهما جـايوت العصر الذهبى للفن الفارسى ..... فى أوج مجده من الجمال والاتساق والدقة (فكان توهج آخر جذوة من النار) .

كمـا أنه من الظلم أن ننكر ـ كمـا يفعل كثير من المستشرقين ـ اسهام الأتراك العثمانيين ، وهو اسهام كبير ، فالامبراطورية العثمانية لم تستعد عظمة الامبراطورية الاسـلامية فحسب ، ولكنها كانت أيضا أكثر البلاد حضارة فى القرن السادس عشر .

وأعظم ملك فى العالم فى ذلك الوقت وهو سـليمان العظيم ، كان أيضا شاعرا مبرزا وراعيا مزموقا للآداب والفنون ، وأعظم العنـاصر الثقـافية فى الامبراطورية العثمـانية خـلال عصره يبرز فى العلوم والقانون ، وفى ازدهار التأليف فى اللغات العربية والفـارسية والتركية، وفى الآثار المعاصرة فى اسطنبول وبورصا وأدرنه ، وفى عظمة الصناعات الفاخرة ، وفى فخامة حياة البلاد وعظماء البلاد وأخيرا وليس آخرا فى تسامحها الدينى ، فتمتزج الحضارات التركية والبيزنطية والايطالية ـ لتشكل ذروة الحضارة العثمانية .

ولكى نعطى فكرة عن نظرة التقدير العظيم التى نظرت بها الشعوب المعاصرة للمعاهد العثمانية ، نذكر أن هنرى الثامن ملك انجلترا أرسـل بعثة الى تركيا لتدرس القانون العثمانى قبل أن يقوم بتنقيح النظـام القضائى فى انجلترا .

وأخيرا كيف يمكن أن ينسى أنه فى ذلك العصر خلفت امبراطورية المغول فى الهنـد « تاج محل » وروعته المعمـارية التى لم يبزها شىء

«رأكبر نامه» «لأبى الفضـــل» الــذى يقــول عنه كارادى فو «ذلك العمل الفذ النابض بالحياة والفكر والمعــرفة حيث تنــاول كل جوانب الحياة وقام بفهرستها وتبويبها وحيث التقدم يغشى البصر ؟ ! انهــا وثيقة تفخر بها حضارة الشرق • ان الشعب الذى تبدو عبقريته فى مثل هذا الكتاب ، كانوا يسبقون عصرهم فى فن ادارة الحكم ، وربما كانوا يسبقون عصرهم فى نظــراتهم فى الفلسفة الدينية ، فهؤلاء الشــعراء والفلاســفة عرفوا كيف يتعاملون مع عالم المادة فقد سجلوا ملاحظتهم على تجاربهم وبوبوها واستخرجوا نتائجها • وكل ما عن لهم من أفكار لخصوه فى ضوء الحقائق وعبروا عن ذلك بكل فصــاحة بل دعموا ذلك بالاحصائيات وينهى كارادى فو حديثه بالثناء على مبادىء التســامح لم تكن ترجمت من قبل للسريانية أو الكلدانية •



أصــول الحضــارة الاسلاميــة

أصـول الحضـارة الاسلامية

عندما بزغ نور الإسلام فى العالم فى منتصف القرن السـابع كانت الحضـارة اليونانية اللاتينية قد بدأت فى الأفول • كما أن بيزنطة التى كان عليها أن تحافظ على حضارة أثينا وروما ، قد فشلت فى ذلك ، ولم تستطع الحفاظ على كنوز الثقافة التى انتقلت اليها من روما الثانية — فكانت سببا تدمير عدد كبير من المؤلفات العلمية والآثار الفنيـة التى خلفتها عصور سابقة •

فالأباطرة القسطنطينيين — بتحريض من الارثوذكس البيزنطيين المتعصبين ، حاولوا تحطيم كل آثار الحضـارة اليونانية ، وقد لطخ تيودورس الثانى سمعته بتخريبه فى شمال افريقيا تخريبا واسـعا • وبناء على أوامره — لا أوامر الخليفة عمر — تم تدمير مكتبة الاسكندرية الشهيرة ، تلك الجريمة النكراء • وفى سنة ٤٨٩م أغلق الامبراطور زينو المدرسة الشهيرة فى الرها التى كانت منذ القرن الثانى مركز اشـعاع للغة السريانية والثقافة اليونانية فى كل الشرق • ولقد خسر جستنيان حسن سمعته بغلقه المدرسة الافلاطونية الشهيرة فى أثينا وكذلك المدارس فى الاسكندرية •

وقد لجـأ الرهبـان النسـاطرة من الرها ونصيبين ، والفلاسفة الأثينيون والاسكندريون من اضطهاد الكنيسة الارثوذكسية والسلطات البيزنطية ، الى بلاد فارس ، وهناك فى جو الحرية الكاملة وتحت الحماية

المتسامحة للساسانيين ، استطاعوا الاستمرار فى ترجمة الكتب المقدسة للآباء والكنيسة ، وكذلك الكتب الفلسفية والعلمية من العصور الأولى لليـونان .

والى العمل الدائب من هؤلاء العمال اللاجئين يرجع الفضل فى أن وجد العرب عند غزوهم لسوريا وفارس جزءا هاما من تراث الفـكر الاغريقى .

لقد تأثر العرب كثيرا بما فيهم من حب استطلاع موروث ، بهـذا العالم من الأفكار الجديدة والمعرفة الجديدة ، الذى انفتح أمامهم بهذه المعارف القديمة ، فبدأ المنتصرون بشغف فى دراسة فنون وعلوم هؤلاء الرعايا الذين قهروهم حديثا . فبدأوا أولا فى ترجمة النسخ الشرقية للمؤلفين اليونانيين الى العربية ، ثم بعد ذلك تلك المؤلفات الأصلية التى لم تكن قد ترجمت من قبل السريانية أو الكلدانية .

تطور الحضـارة الاسـلامية

١ ـ العصر الذهبى للحضارة الاسلامية .

٢ ـ مدرسـة بغـــداد .

٣ ـ كيف غزت الحضارة الاسلامية الغرب ؟

٤ ـ المسالك التى اتخذها الغزو الاسلامى .

تطـور الحضـارة الاسلامية

يرجع الفضل فى تقدم وتطور الحضارة الاسـلامية الى الخلفـاء الأمويين الذين كثيرا ما لا ينصفهم المؤرخون المسلمون •

فملوك هذه الاسرة لم يترددوا فى اسـتثمار كل مواهب رعاياهم بغض النظر عن الجنس أو الدين • وهكذا شق الكثيرون من العلمـاء والشعراء والاداريون ، طريقهم الى حاشية الخلفاء الأمويين •

والى هذه العناصر المختلفة جنسيا ودينيا فى الامبراطورية ، يرجع الفضل فى بلوغ الثقافة والفنون درجة عالية من الرقى فى ذلك العصر • فكان يزين بلاط عبـد الملك ، الشـعراء الهاجاؤون جرير والفـرزدق والأخطل ــ وكان الاخير نصرانيا ــ وكان هذا الخليفة المغرم بالعمارة والشعر بل كان هو نفسه شاعرا ــ وهو الذى أمر ببناء مسجد عمـر فى بيت المقدس ، وفى عصر ابنه وخليفته الوليد الذى امتدت فى عصره الامبراطورية الاسلامية من الهند شرقا الى مراكش غربا ، شيدت هذه الروائع المعمارية الاسلامية : الجامع الأموى فى دمشـق ، ومسـجد المدينـة •

١ ــ العصر الذهبى للحضارة الاسلامية

١ ـ العصر الذهبى للحضارة الاسلامية

كان حكم بنى أمية فى سوريا مجرد مرحلة النمو والنضـــج ، أما أزهى عصور الحضارة الاســلامية فكان ـ بلا أدنى شك ـ فى عهـد الخلفـاء العباسيين فى بغـداد (٧٥٠ ـ ١٢٥٨) والحكم الأموى فى الاندلس (٧٥٥ ـ ١٤٩٢) « فى زمن كانت فيه سائر بلدان أوربا ترزخ فى الظلمة والبربرية»كما يقول جوستاف لوبون : «كانت بغداد وقرطبة عاصمتا الاسلام العظيمتان مركزين للحضارة التى أضاءت العــالم بنور عبقريتهما » •

ويكتب جيكوب ريزلر قائلا : «على مدى خمسة قرون ساد الاسلام العالم بقوته وعلمه وحضارته الفائقة ، فبعد أن ورث الاســلام الكنوز العلمية والفلسفية للحضارة اليونانية،نقل هذه الكنوز ـ بعد أن أثراها ـ لأوربا الغربية ، وهكذا وسع من الآفاق الفكرية للعصور الوسطى وترك أثرا بارزا على أوروبا فكرا وحياة» •

وكان تأسيس الخليفة المأمون « لبيت الحكمة » فى بغداد سنة ٨٣٠ حدثا هاما من أحداث العصور الوسطى ، وليس من المغالاة فى شىء أن نقــول أن هــذه المؤسسة قد لعبت دورا هاما ـ وكانت تجمـــع بين الاكاديمية والمكتبة ومركز للترجمة ـ فى نقل تراث الحضارات القديمــة الى العالم الغربى ، فقد قامت هذه المؤسسة الرابعة التى ضمت علماء من المسيحيين واليهود والعرب ، على الاهتمام « بالمعارف الأجنبية » من

علوم وفلسفة اليونان ، ومؤلفات : جالينوس وهيبوقراطيس وأفلاطون وأرسطو،والشارحين من أمثال الاسكندر الافرديسى،وثيمستينس ويوحنا فيلوبونس ••• الخ • لقد كان — ما ناحية ما — غزوا فكريا بلغ ذروته فى نوع من النشوة العلمية والفكرية بين العلماء •

٢ ـ مدرسة بغداد

٢ ـ مدرسة بغداد

كان بيت الحكمة حجر أساس لمدرسة بغداد التى ظل تأثيرها حتى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، ويرجع الفضل الى هذه المدرسة الزاهرة فى الحفاظ على استمرارية الحضارة ، واصلاح سلسلة المعارف الانسانية التى حطمها بقسوة فى القرن السادس اضمحلال روما وسقوطها •

ولو اقتصرت حضارة الاسلام على مجرد انقاذ الحضارة القديمة والحفاظ عليها بعناية ثم نقلها للاجيال التالية ، لكانت هذه خدمة تجل عن الوصف • ولكن لم يكن الأمر كذلك • فان علماء وفلاسفة مدرسة بغداد ورثة روح وتعاليم مدرسة الاسكندرية ، أضافوا وأثروا الحضارة القديمة باضافات مبتكرة فى كل فروع العلم ، باكتشافات لا حصر لها فى الفنون التطبيقية ، وفوق كل ذلك باكتشاف طرق جديدة للبحث والاستكشاف •

ويقول سيديلوت ــ وهو حجة فى هذا الموضوع ــ : « ان ما تمتاز به مدرسة بغداد هو الروح العلمية الصادقة التى وجهت كل أعمالها ، فكانت تتقدم من المعلوم الى المجهول ، تراقب الظواهر بكل دقة لتستنتج الاسباب من النتائج ، ولا تقبل حقيقة الا متى أثبتتها التجربة • كانت هذه هى توجيهات أساتذتها • لقد امتلك العرب فى القرن التاسع الوسائل العلمية الفنية ، التى استطاع العلماء فى العصر الحديث أن يستخدموها فى اكتشافاتهم العظمى » •

ويؤيد ه • ا • ر • جيب فى عصرنا الحاضر ما سبق أن قاله سيديلوت منذ قرن مضى ، بالقول : « بتركيز الفكر على أحداث فردية ، استطاع العلماء المسلمون أن يتقدموا بالطرق العلمية ، أكثر جدا مما فعل سابقوهم من اليونان والاسكندريين ••• واليهم يرجع الفضل فى ادخال أو استعادة الطرق العلمية لأوربا فى العصور الوسطى » •

فلم تسهم مدرسة بغداد اسهاما قويا فى ايقاظ أوربا فحسب ، كما كتب دى سيسموندى بل أشرقت بالضياء على كل آسيا •

ولقد شقت الحضارة طريقها الى الهند حوالى سنة ١٠١٦ م فى عهد السلطان محمود الغزنوى ، ووصلت الى السلاجقة عن طريق عمر الخيام حوالى سنة ١٠٧٦ م ، والى المغول عن طريق نصر الدين توزى مؤسس مرصد المراغة فى سنة ١٢٦٠ م ، والى العثمانيين حوالى سنة ١٣٢٧ م ، ودخلت الى الصين حوالى سنة ١٢٨٩ م فى أثناء حكم كوبلاى خان بواسطة كوشيوكنج • ولقد أقام تموريد أولج بج أثرا جديدا خالدا تكريما لها فى سمرقند سنة ١٤٣٧ م •

ولقد تخلص الغرب منذ عهد قريب من مؤامرة الصمت الذى خيم على كل جهود المؤرخين المستقلين مثل دى سيسموندى ، وجوستاف لوبون ، وسيديلوت الذى أراد أن ينصف اسهام الحضارة العربية الاسلامية فى تقدم البشرية •

ولا يستطيع الآن مستشرق جاد أن ينكر هذا الاسهام ، ولكن بينما يقرون تماما بدور الاسلام فى نقل الحضارة القديمة الى الغرب ، الا أن بعض المستشرقين ما زالوا يترددون فى الاعتراف بالروح الخلاقة

عند العرب ، ولكن من المستحيل دراستها • وبدون هذا التجـديد لها من جانب العرب ، لاستحال ظهور النهضة الحديثة (أو احيـاء العلوم فى أوربا) •

والبحث العلمى فى اسـبانيا الاسـلامية تؤكده المدرسة الفرنسية الحديثة للدراسات الشرقية والتى كان يرأسها ليفى بروفنسال ، وتؤيد ذلك جهـود بعض المؤرخـين الاسبان البارزين من أمثـال سـانشيز انبورنوز ، وآسين بالاسواز ، وجوميز مورينو وأميل جارتسـا جوميز •

يكتب سانشيز البورنوز : «بدون شك ، لا يستطيع أحد اليـوم أن يتكلم عن العصور الوسطى المظلمة ، ففى نفس الوقت الذى كانت فيه أوروبا تعانى من البؤس والانحلال ، كانت هناك حضـارة مزدهرة فى اسبانيا الاسلامية • ان قادة الدراسات العربية فى اسبانيا اليوم يفتحون أفاقا جديدة عن بذور وأثر وأشراق هذه الثقافة الاسبانية المغربيـة ، فأثبتوا الدور الحاسم الذى لعبته هذه الثقـافة فى تقـدم الفلسفة ، والعلوم والشعر ، بل وفى كل جوانب ثقافة أوروبا المسيحية • ولقـد أثبتوا أن تأثيرها قد وصل الى قمم الفكر فى العصور الوسطى حتى بلغ القديس توماس ودانتى • وبلا شك يقصد أناس كثيرون جانبى جبـال البرانس أو شواطىء البحر المتوسط ، ويرفضـون الاعتراف بقـديم تفوقها ، وجليل دورها فى تشكيل الحضارة •

وعلى أية حال ، هناك براهين قوية اليوم على ذلك ، وكل يوم يأتى ببراهين جديدة تعود الى ما قبل النهضة بعدة قرون ، فان الينابيع التى كادت تجف ، فاضت من جديد ، ولقد حفظ نهر الحضارة الذى فاض من قرطبة ونقل الى العالم الحديث خلاصة الفكر القديم » •

٣ ـ كيف غزت الحضارة الاسلامية الغرب

٣ ـ كيف غزت الحضارة الاسلاميه الغرب

متى وصل الاسلام الى أوربا وأى السبل اتخذ اليها ؟

للاجابة على هذا السؤال يجب أولا استبعاد الاعتقاد الشائع الخاطىء ، بأن الحملات الصليبية هى المسئولة عن أول لقاء للثقافة بين الشرق والغرب .

ولكى نحدد بالضبط أثر الحملات الصليبية على العلاقات بين ساحلى البحر المتوسط ، علينا أن نميز بين الثقافة الفكرية والأدبية من جانب ، والحضارة المادية المحضة من جانب آخر .

ولو أن هذا الأثر كان قليل الأهمية فى مجال العلوم والآداب ، الا أنه كان بالغ السوء فى مجال الفكر والعلاقات الانسانية ، فقد أثار المسيحية ضد الاسلام فى صراع لا يهدأ ، بخلق جو من التعصب والكراهية ، وايجاد فجوة عميقة بين الغرب والشرق ، ولمدة قرون عديدة منع قيام أى نوع من التعاون بين العالمين .

والروابط الفكرية الروحية التى كانت قد رسخت بين أسبانيا المسلمة وأكوتين (جنوب غرب فرنسا) فى نهاية القرن الثامن ، وانهارت بقسوة،ولغة الحضارة الغربية،بدت كمحاولة مبشرة بالوفاق بين الشرق والغرب،انتهت فجأة ، فلم يكد يلوح وميض هذا الاتحاد بين ثقافتى البحر المتوسط حتى خبا ، وأصبح من العسير التوفيق بينهما .

كانت هذه هى النتيجة المحزنة للحملات الصليبية على المستوى الروحى •

وعلى العكس من هذا فان الغرب يدين بالكثير للحملات الصليبية فى مجال الحضارة المادية •

فقد وضعت الحملات الصليبية الديانة المسيحية على اتصال مباشر مع الشعوب الاسلامية على أرض الاسلام نفسه • فلم يكن القرنان اللذان قامت فيهما الممالك الافرنجية فى شرق البحر المتوسط ، حروبا متواصلة • لقد كانت هناك فترات من السلام فى وسط العداء ، وقد أعطت هذه الفترات من السلام الفرصة لنمو العلاقات الانسانية بين القوات المحتلة والمسلمين،واتصل عدد كبير من المسيحيين اتصالا مباشرا بحضارة أسمى بكثير من حضارة أوروبا فى عصرهم • فقد وجد رجال الحملات الصليبية فى الشرق أشياء كثيرة جديدة عليهم وأساليب تقنية (فنية) لم تكن معروفة لديهم فى الغرب ، فادخال كميات كبيرة من المنتجات الشرقية الى الاسواق الاوروبية واستخدام وتبنى أساليب جديدة فى الزراعة والصناعة والحرف اليدوية،كان من أهم نتائج الحملات الصليبية ، وقد أحدث هذا تحولا كثيرا فى اقتصاد أوروبا الغربية • وتقدمت التجارة تقدما راقيا ، وانضمت مارسيليا الى دويلات المدن الايطالية التى كانت الى ذلك الحين تحتكر تجارة البحر المتوسط •

وبصورة عامة ، بدأت أوروبا تتلقى الدروس من الحضارة الشرقية وتجول الانتاج الغربى ، وهكذا قال البرت تنشمبدر فى كتابه الرائع عن «صلاح الدين : أنبل أبطال الاسلام» •

ويقول : من الشرق تعلم أسلافنا نسج المنسوجات الثمينة التى كانت سبب ثراء البندقية ثم اثراء أجزاء من فرنسا ، كما أخذوا من الشرق صناعة الستان والقطيفة والمطرزات الذهبية والفضية والمنسوجات الرقيقة مثل الموسلين والتل والتافتاة : كما أنه منذ عصور قديمة برع الشرقيون فى صناعة السجاجيد ذات الوبر الطويل الغزير ويحاول الشرقيون فى صناعة السجاجيد ذات الوبر الطويل الغزير ، ويحاول أتقنت صناعة نفخ الزجاج وقطع المرايا ، فالفضل فى ذلك يرجع الى الاساليب المستخدمة فى أسواق الشرق الادنى ٠ كما أن الغرب تعلم صناعة الورق ومزج الشراب من صناع سوريا ، ولقد كان الغزو السلمى أثر باقيا على التجارة ، وبداية للصناعة فى أوروبا ، فتعلمت أوروبا صناعة النسيج ، ، وانتعشت صناعات الرفاهية وتطورت فى الغرب ، واتسع الانتاج وتقدمت الاساليب الفنية ٠ وفى الحقيقة اكتسحت المجتمع ثورة اقتصادية وعمت القارة بأجمعها ٠

وكما يقول ريزلر فانه بالرغم من أن سوريا كانت لمدة عامين من الحملات الصليبية — موضع الاختلاط بين المسلمين والمسيحيين ، الا أنها تأتى فى المرتبة الثانية بعد صقلية ، وقبلهم تأتى اسبانيا ، من جهة تأثير العرب على الغرب ٠

ويجب أن نضيف أنه ما من شىء غريب فى ذلك ، فقد كانت العلوم الفلسفية والآداب والفنون الاسلامية ، معروفة فى الغرب قبل الحملات الصليبية ، وكان أثرها محسوسا قبل الحملات التى قام بها المسيحيون ٠

٤ ـ المسالك التى اتخـذها
الغـزو الاســـلامى

٤ ـ المسالك التى اتخذها الغزو الاسلامى

لقد تم تلاقى الحضارتين المسيحية والاسلامية عبر مسالك راسخة : أدت فيها التجارة والحج الدور الرئيسى ٠

فقد ازدهرت حركة الانتقال من الشرق والغـــرب من قبـــل القرن الحادى عشر الميلادى ، ودخلت الحضارة الاسلامية الى أوربا عن طريق اســبانيا وصقلية وجنــوب فرنســا التى كانت تحت الحكم المبــاشر للمسلمين ٠

ففى منتصف القرن التاسع سادت الحضارة الاسلامية اسبانيا ، واعتبر الاسبان اللغة العربية الوسيلة الوحيدة للعلوم والآداب ؛ وبلغت أهميتها حدا اضطرت معه السلطات الكنسية الى ترجمة مجموعة القوانين المستعملة فى الكنائس الاسبانية الى اللغة الرومانية التى أشتقت منها اللغة الاسبانية الحديثة ، وكانت اللغتان مستعملتين فى كل جهات اسبانيا الاســلامية ٠

وأدركت اسبانيا المسيحية تفوق المسلمين ، وفى سنة ٧٣٠م أرسل الملك الفونسو الكبير ملك أوستورياس فى طلب اثنين من العلماء المسلمين ليقوما على تعليم ابنه وولى عهده ، وقد عمل الملكان ألفونسو السادس ــ فاتح بلد الوليد (طليطلة Toledo) والذى كان قد تزوج ابنه ملك أشبيلية المسلم ــ والفونسو الحكيم ، عملا على التقــارب الفكرى بين المسيحيين والمسلمين ٠

ويرتبط باسم ألفونسو السابع تأسيس مدرسة المترجمين سـنة ١١٣٠م فى بلد الوليد ، وهى المدرسة الاسبانية التى تضارع دار العلم فى بغداد ، ويرجع الفضل لجهود المترجمين فى بلد الوليد وزملائهم فى برجوس وصقلية ونابلس فى معـرفة العلمـاء الاوروبيين ، بالترجمات اللاتينيـة لمؤلفـات العلمـاء العرب من الفلكيين وعلمـاء الرياضيات والفلاسفة والاطباء وعلماء النبات ، اذا لم تبدأ الترجمة مبـاشرة من النصوص اليونانية الا فى أواخر القرن الثالث عشر •

ولقد امتدت الشهرة العلمية للمسلمين الى كل الجهات وجذبت صفوة مفكرى الغرب الى الاندلس وصقلية وجنوب ايطاليا ، فمثلا قضى واحد من أبرز رجال القرن الثانى عشر وهو جربرت دى أوريلاك،الذى أصبح أول بابا فرنسى باسم سلفستر الثانى ، ثلاث سنوات فى بلد الوليـد يدرس مع العلمـاء المسلمين الرياضيات والفلك والكيميـاء وغيرها من المواضيع •

كما درس عديد من المطارنة الفرنسيين والانجليز والالمان والايطاليون وغيرهم من رجال العلم مددا مختلفـة فى الجامعـات الاسـلامية فى أسبانيا •

ويدين جرارد الكريمونى ـــ الذى ترجم مؤلف أرسطو فى الطبيعة من النسخة العربية ، وكمبانوس الناقارى ، وأبلارد الباقى ، والبرت ودانيال المورليين ، ومستل سكوت ، وهرمان الدلماتى وكثيرون غيرهم ، جميعهم يدينون بعلومهم الاساسية للمسلمين •

أما فى جهة فرنسا فان قربها من اسبانيا كان عاملا كبيرا فى تأثير

الحضارة الاسلامية فى جنوب فرنسا ، ولكن الأهم من ذلك كان احتلال المسلمين المباشر لسبتمانيا (المنطقة الشاسعة الواقعة بين البحر المتوسط وجبال السفن وجبال البرانس ونهر الرون) لمدة تزيد عن نصف قرن •

ويكتب فوريل : يرجع الفضل لاحتلال العــرب لذلك الاقليم ، فى ادخال صناعات عديدة الى جنوب فرنســا وكذلك بعض الآلات ذات التطبيق العام ، مثــل الآلات المستخدمة فى سحب الماء من الآبار لرى الحدائق والمزارع وهى جميعها من أصل عربى •

ولم ينته تأثير العرب بطردهم بل ظلت العلاقات بين فرنسا والعرب متصلة كما يلاحظ رينو بحق : أن تأثيرهم لا بد قــد ازداد منــذ ذلك الوقت ، فعلى عكس العلاقات القديمة ، قامت العلاقات الجديدة على روابط التجارة والصداقة •

ومن الظلم أن لانذكر هنا أهمية الدور الذى قام به يهــود اسبانيا وأكوتيانيا ــ كوسطاء بين الحضارة الاسلامية والثقافة المسيحية ، فان التأثير اللاهوتى للمسلمين الذى كان واضحا جدا على كل علماء لاهوت العصور الوسطى ، جاء أساسا من الترجمات العبرية •

كما أن روح الانصاف يقتضينا أن نذكر الدين الكبير الذى تدين به اليهود الحضارة الاسلامية • فقد ذهب أرنست رينان الى حد القول : « ان كل الثقافة اليهودية فى العصور الوسطى انما كانت انعكاسا للثقافة الاسلامية التى كانت أقرب الى روحهم من الحضارة المسيحية •

ويذكرنا بروفســور ماسينيون ــ حديثــا ــ أو أول قواعد للغــة العبرية ، قد جمعها يهودا بن قريش من قواعد اللغة العربية •

حتى اليوم فى أرض فلسطين يتعلمون اللغة العبرية بواسطة تلك القواعد المبنية على قواعد اللغة العربية •

ولقد شاهدت العصور الوسطى ميــلاد مؤلفات كاملة فى اللاهوت والفلسفة كتبها يهود فى اللغة العربية ، ولا يسعنا الا ذكر أسماء قلة من الفلاسفة والكتاب كأمثلة للعلماء اليهود مثل ابن ميمون ، وسعــديه الفيوص ويهودا حلفى ، وباهيا بن باودا ، وابن حبرول ••• وغــيرهم كثــيرون •

اسهام المسلمين فى الحضارة البشرية

الفصل الاول : الفلك .

الفصل الثانى : الرياضيات .

الفصل الثالث : علم الطبيعة .

الفصل الرابع : الكيمياء .

الفصل الخامس : الطب .

الفصل السادس : التاريخ الطبيعى .

الفصل السابع : الفلسفة .

الفصل الثامن : الآداب .

الفصل التاسع : الجغرافيا والتاريخ .

الفصل العاشر : العلوم السياسية وعلم الاجتماع .

الفصل الحادى عشر : الهندسة المعمارية والفنون التشكيلية .

الفصل الثانى عشر : الموسيقى .

اسهام المسلمين فى الحضارة البشرية

فى عجالة مثل هذه لا مجال لتعداد الطرق التى أسهمت بها الثقـافة الاسلامية فى حضارة الجنس البشرى ، فلا خيار لنا فى الاقتصار على ذكر قليل من أهم الاكتشـافات التى تدين بالفضـل فيها للابحـاث الاسلامية ، وذكر قلة من العلماء والفلاسفة والكتاب الذين أثروا العلوم والآداب باضافاتهم وكان لهم تأثير ملحوظ فى الفكر الغربى ٠

الفصل الأول

الفــــلك

الفـــــلك

كان الفلك والرياضيات أو ما استرعى انتباه العلماء المسلمين من العلوم ، فان اتجاههم الفكرى ، وأسلوبهم العملى قد أديا بهم الى توجيه اهتمامهم قبل كل شيء الى العلوم الدقيقة •

ولم تجتذب علوم الفلك انتباه رجال العلم فحسب ، بل ان كثيرين من الخلفاء • سـواء فى الشرق أو فى أسبانيـا ، بل وبعض السـلاطين السلاجقة والخانات ، خلفاء جنكيزخان وتيمورلنك ، أصبحوا شغوفين بها ، وقـامت المراصـد على نحو ما فى كل مركز من المراكز الهامة فى الامبراطورية الاسلامية • وقد اكتسبت مراصد بغداد والقاهرة وقرطبة وبلد الوليد وسمرقند شهرة عن جدارة •

ويرجع العهد بمدرسة بغداد للفلك الى عصر المنصور ثانى الخلفاء العباسيين (٧٥٤م — ٧٧٥م) الذى كان هو نفسه فلكيا ، وقد صدر عن هذه المدرسة فى عهد خلفائه هارون الرشيد والمأمون بعض المؤلفـات الهامة ، فروجعت النظريات القديمة وصوب العديد من أخطاء بطليموس وصححت جداول اليونان • والى مدرسة بغداد يرجع الفضل فى اكتشاف حركة نقطة الاوج فى مدار الشمس ، وتقدير انحراف المدار البيضاوى ونقصانه المتوالى ، والدراسة التفصيلية لتقدير مدة السنة • وقد لاحظ علماء بغداد عدم انتظام أقصى ارتفاع للقمر،واكتشفوا التباين القمرى الثالث ويعرف باسم «التغيير» ، وراقبـوا الكلف (البقـع) الشمسى،

ودرسوا الكسوف والخسوف ، وظهور المذنبات وغيرها من الظواهر الفلكيـة ، وشكوا فى ثبات الارض ، فكانوا السابقين الاوائل على كوبرنيقوس وكبلر •

وقد سجلت نتائج هذه المراقبات التى قامت بها مدرسة بغداد ، فى «الجداول المتحققة» ، ويعد يحيى بن أبى منصور المؤلف الرئيسى لهذه الجداول • ومن أشهر علماء هذه المدرسة نذكر البتانى الذى يعتبره لالاند واحدا من أشهر عشرين فلكيا فى العالم ، وأبو الوفا الذى يرتبط اسمه بأحد أساسيات علم الفلك ، وهو التباين القمرى الثالث •

ولقد سبق هذا الفلكي المسلم العالم الدانمركى تيكوبراهى الذى ينسب اليه خطأ هذا الاكتشاف ، سبقه بعشرة قرون •

أما العالم الشهير على بن يونس مكتشف البندول والمزولة الشمسية، الذى أقام للخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله (٩٠٠م — ١٠٢١م) مرصدا على جبل المقطم فى القاهرة — فيعد مؤسس مدرسة القاهرة ، وهو الذى أشرف على اخراج الجدول الحاكمى الذى فاق فى أوانه كل ما سبقه ، وفى كل بلاد الشرق حتى الصين ، حل محل كتاب المجسطى لبطليموس ومؤلفات بغداد • وفى نفس الفترة كتب الحسن بن الهيثم ، أحد علماء الفلك والرياضيات فى مدرسة القاهرة مؤلفه الشهير فى البصريات الذى كان أساس مؤلفات روجر بيكون وكبلر • ومن الامور الجديرة بالذكر أن ابن الهيثم كان أول من فكر فى اقامة سد فى أسوان لرفع مستوى النيل •

كما أن الدراسات الفلكية لم تكن أقل من ذلك أهميـة فى اسبانيا المسلمة ، فأمير قرطبة عبد الرحمن الثانى أبدى اهتماما خاصا بهـذا

العلم ، وللأسف لم يصلنا من المؤلفات الفلكية فى اسبانيا الاسلامية الا القليل جدا ، فجميعها تقريبا قد ضاعت فى حروب استرداد اسبانيا من العرب ، وفى أثناء الاضطهادات الدينية . ولكننا نعلم أنه فى ذلك العصر اشتهرت مراصد بلد الوليد وقرطبة ، وقد احتفظ التاريخ بأسماء عدد من علماء الاندلس مثل مسلمة المجريطى وعمر بن خلدون وابن رشد وقليلين وغيرهم ، ولكننا نستطيع أن نتبين عظمة هذه الاعمال المفقودة للعلماء المسلمين من تعليقات المؤلفين المسيحيين الكثيرين الذين استعاروا من هؤلاء العلماء .

وعليه فيبدو أن الجداول الفلكية لألفونسو العاشر والمعروفة بالجداول الالفونسية قد تأثرت الى مدى بعيد بدراسات العرب ان لم تكن قد بنيت أساسا عليها .

ان الحروب والمنازعات الداخلية التى اجتاحت آسيا فى القرن الحادى عشر ، قد آثرت تأثيرا كبيرا على الحياة الفكرية فى المجتمع الاسلامى ، فبكل تأكيد قد أبطأت كثيرا من حركة تقدم الحضارة وان كانت لم توقفها تماما . فقد استمرت مدرسة بغداد بعد سقوط الخلافة الشرقية وانهيار الامبراطورية . ولم ينقطع تأثيرها الخلاق حتى منتصف القرن الخامس عشر ، وفى تلك الاثناء امتد تأثيرها فى أواسط آسيا والهند والصين .

وكان عبد الرحمن محمود بن أحمد البيرونى أحد علماء الاسلام البارزين الذين شكل حلقة الربط بين معارف مدرسة بغداد والعلماء الهنود ، وقد عاش فى بلاط محمود الغزنوى (٩٩٧م ــ ١٠٣٠م) ، ومن

أعماله الكثيرة فى مختلف المواضيع ، نشر جداول لخطوط الطول وخطوط العرض لأهم مدن العالم .

كم كان السلطان السلجوقى ملك شاه (١٠٧٢م — ١٠٩٢م) ملكا مستنيرا ، يضم بين أصدقائه عددا كبيرا من العلماء والادباء ، وكان يهوى الفلك وقد أدت أرصاده الى تصويب التقويم قبل التصويب الجريجورى بنحو عشرة قرون ، وبصورة أدق ، ويرجع الفضل فى ذلك الى عبد الرحمن حسنى وعمر الخيام مؤلف الاشعار المشهورة التى خلدت اسمه .

وما بذله الحكام المغول لتشجيع العلم لم يقل عن ذلك ، فهولاكو الرهيب ذو الشهرة السيئة والمسئول عن تدمير بغداد . بنى فى مراغة مرصدا نموذجا كان يديره نصر الدين الطوسى مؤلف الجداول الخانية (نسبة الى الخان حاكم المغول) والذى قام باستكمال الاجهزة العديدة المستخدمة فى المراصد . ومن هذا الركن العلمى الجديد وجدت أعمال الفلكيين البغداديين والقاهريين طريقها الى الصين فى عهد حكم كوبلاى خان .

وفى عهد حكم أولج بج حفيد تيمورلنك ، بلغ علم الفلك عند المسلمين أوج مجده . فأولج بج الذى ارتبط اسمه واسم أبيه شاهروه بالحركة الفنية الادبية الكبيرة التى تطلق عليها النهضة التيمورية ، كان مغرما بالفلك ويعتبر آخر ممثلى مدرسة بغداد ، فمؤلفه الذى نشر سنة ١٤٣٧م يعطى نظرة شاملة عن علم الفلك فى عصره ، فقبل كبلر بقرن من الزمان ، ربط بين علم الفلك عند القدماء وعلم الفلك فى العصر الحديث .

الفصل الثانى

الرياضيـــــات

الرياضيات

كانت الرياضيات مثلها مثل الفلك من أحب العلوم عند العرب ، فكثير من القواعد الاساسية للحساب والهندسة والجبر قد اكتشفها العلماء المسلمون •

ففى الحساب نستخدم الأعداد وطريقة الحساب التى اخترعهـا العرب ، كما أن اختراع الجبر ينسب الفضل فيه الى العرب ، وهو حق على الأرجح • وعندما أنشأ الخليفة المأمون دار العلم ، عين محمد بن موسى الخوارزمى رئيسا لها ، وكتابه عن الجبر عنوانه : الجبر والمقابلة (الحساب بالرموز) • ومن الكلمة الأولى فى هذا العنوان جاءت كلمة Algebra (علم الجبر) ومن تصحيف اسم المؤلف الخـوارزمى جاءت كلمة « لوغاريتم » وقد كتب جيرارد الكريمونى فى ترجمته لهذا الكتاب : « بعد أن ظل حجر الزواية فى التعليم الرياضى الذى بناه العرب الذين جاءوا بعده ، نبه معاصريهم من الغربيين الاوائل الى روعة الحسابات الجبرية وفى نفس الوقت نبههم الى حساب الكسور العشرية » •

قال فيليب حتى : « كان الخوارزمى من أفضل العقول العلمية من المسلمين وهو بلا شك الرجل الذى أثر أبلغ التـأثير فى الفكر الرياضى طيلة العصور الوسطى » •

وأكمل عمله ثابت بن قره مترجم المجسطى لبطلميوس الذى طـور الجبر وكان أول من أدرك انطباقه على الهندسة •

وكان حساب المثلثات هو فرع الرياضيات الذى اهتم به العرب أشد الاهتمام لتطبيقاته فى علم الفلك • وترجع الخطوات الأولى فى هذا العلم الى البتانى الذى اهتدى الى فكرة استبدال نصف وتر ضعف القوس ـ أى جيب الزاوية ـ بأوتار الاقواس التى استخدمها اليونانيــون فى حسابات مثلثاتهم • ويقول م•تشــارلس : ان البتــانى كان أول من استخدم فى مؤلفاته جيب « وجيب تمام » الزاوية واستعمله فى حسابات المزولة وأسماه «الظــل الممتد» وهــو ما نسميه فى حســاب المثلثــات الحديث « بالظل » •

وأثبت ادخال «الظــلال» الى علم حساب المثلثــات أنه ذو أهمية بالغة فيقول م•تشارلس : « ان علماء الرياضة المحدثين لم يكتشفوا هذا الكشف الهام الا بعد خمسة قرون ، وينسب الى ريجمونتانوس ، ولم يدركه كوبرنيقوس الا بعد ذلك بقرون » •

وكان اختراع علامة « الصفر » بواسطة محمد بن أحمد سنة ٩٧٦م انقلابا ثوريا فى عالم الرياضيات ، لكنه لم يستخدم فى الغرب الا فى بداية القرن الثالث عشر الميلادى •

وأخيرا لنذكر أن نصر الدين الطوسى كان أول من شك فى قيــام هندسة أقليدس ، ويجب أن يعتبر الرائد القديم للوبتشفسكى وريمــان فى الهندسة اللااقليدية •

الفصل الثالث

علــم الطبيعـــة

علم الطبيعة

يقـول هيمولدت : « يعـد العـرب المؤسسين الحقيقيين لعـلم الطبيعة » • ومن سوء الحظ أن المؤلفات الرئيسية للعلماء العـرب فى الطبيعة قد فقدت ، وبعض منها لا نعـرفه الا بالاسـم فقط ، ولكن القليل الذى وصلنا منها يشهد بأهمية الدراسات التى قاموا بها ، ويبرز ما قاله همبولدت •

فمؤلف الحسن بن الهيثم(٩٦٥م ــ ١٠٣٩م) عن البصريات مؤلف فى العلوم من الدرجة الأولى فى الاهمية ، ويقول م•تشارلس « انه كان بداية العلم الحديث فى البصريات (علم الضوء) •

وهو يتكلم عن الوضع الظاهرى للصور فى المرايا ، وعن الانكسار ، والأحجام الظاهرة للاشياء ، واستخدام الغرفة المظلمة » التى أثبتت أهميتها البالغة فى علم التصوير الخ • وأبحـاث الحسن بن الهيثم فى المرايا الكرية ألهمت روجر بيكون ليقوم بتجاربه ، وكذلك كبلر وغيره من علماء الغرب بصنع الميكرسكوب والتلسكوب • وقد انتقد نظرية اقليدس وبطليموس ، وكان أول من أعطى وصفا دقيقا للعين نفسها ، وللعدسات ، والرؤيا بكلتا العينين •

كما أن علم الميكانيكا كان على مثل هذه الدرجة من التقدم عنـد العرب فى تلك الحقبة من الزمن ، ونستطيع أن نرى ذلك فى الاجهـزة

البارعة التى استخدمها العلمــاء المسلمون فى أبحــاثهم والتى وجدت طريقها الى الغرب فيما بعد •

وقد أوضح ا•برنارد من جامعة اكسفورد رأيه فى أن العرب هم الذين اكتشفوا استخدام البندول فى الساعات ، ومما لا شك فيه أنهم استخدموا ساعات تدار عن طريق الاثقال تختلف كلية عن الســاعات المائيــة • وقد وصف بنيامين (من بلد الوليد) الذى زار المجتمعــات اليهودية فى الشرق فى القرن الثانى عشر ، وصف الساعة الشهيرة التى كانت فى جامع دمشق •

وليس من ينكر أن البوصلة اخترعها الصينيون ؛ ولكن العــرب هم الذين بلغــوا بها درجة الكمــال وطبقوها عمليــا باســتخدام الابرة المغناطيسية فى الملاحة البحرية •

الفصل الرابع

الكيمـــاء

الكيميـاء

ليس من المبالغة فى شىء أن نقول ان الكيمياء لم يكن لها وجود قبل العـرب ، لاشك أن اليونانيين عرفوا شيئا من العنـاصر ، ولكنهم لم يعرفوا شيئا عن أهم المواد مثل الكحول وحمض الكبريتيك والماء الملكى وحمض النتريك ، فالعرب هم الذين اكتشفوا هذه المواد مع البوتاسيوم وأملاح الأمونيا ، ونترات الفضة ، وكلوريد الزئبق وتحضير الزئبق ، فاذا أضفنا الى ذلك حقيقة أن احدى العمليات الاساسية فى الكيمياء ، وهى التقطير ، كانت اكتشافا عربيا ، كما كانوا أول من استخدم طرق التسامى والتبلور والتجلط والتسخين فى البوتقة وذلك لفصل أو تركيب المواد ، فلا شك أننا نعترف بفضل العرب على هذا العالم .

كما أن عبارات كثيرة مما يستعمل فى علم الكيمياء ، تعود الى أصول عربية مثل الكحول ، والانبيق ، والقلوى ، والاكسير ... الخ .

وبدون شك فان أعظم كيمياوى عربى كان أبو موسى جعفر الكوفى (جابر) الذى عاش فى النصف الثانى من القرن الثامن الميلادى . وتعد مؤلفاته دائرة معارف علمية وتعطينا ملخصا لعلم الكيمياء فى عصره وقد ترجمت الكثير من مؤلفاته الى اللاتينية ، وأهمها هو « مجموع الكمال » الذى ترجم الى الفرنسية سنة ١٦٧٢م .

كما كان أبو بكر زكريا الرازى فى كتابه « الحاوى » أول من وصف

تحضير حمض الكبريتيك والكحول الذى كان يحضر من تقطير النشويات أو السكريات المخمرة •

وقد تقدم العرب فى هذا العلم من الابحاث النظرية الى التطبيقات العملية ، وكان تطبيق علم الكيمياء فى الصيدلة من أهم الفوائد التى ندين بها للعلماء المسلمين ، فعدد كبير من المنتجات التى نستخدمها يوميا مثل الكافور والماء المقطـر ، واللزقات ، والأشربة والكثير من المراهم يعود الفضل فيهـا للعرب • كما يظهر مدى التقـدم الذى أحدثوه فى الكيمياء الصناعية ، فى المهارة العظيمة التى أبداها صناعهم الفنيـون ومعالجة الجلود وصناعة الفولاذ •

وبين الاختراعات التى أفادت الصناعة فائدة كبرى ، لا بد أن نذكر البارود وصناعة الورق من القطن أو الكتـان أو الخـرق • لقد ظل اختراع البارود زمنا طويلا منسوبا لروجر بيكون والبرتوس ماجينوس وبيرتولد شبتوارز ، كما أنه ينسب أيضا للصينيين ، لكن أبحـاث رينـو وفاقيـة قـد برهنت على أنه وان كـان الصينيون قد اكتشفوا نترات البوتاسيوم واستخدامه فى الالعاب النارية ، فان العرب — والعرب وحدهم — هم الذين اخترعوا البارود بوصفه مادة متفجرة صـالحة لصنع القذائف ، فهم الذين اخترعوا الاسلحة النارية ، وقد استخدموها فى سنة ١٣٤٢م فى الدفاع عن الجبسيرس عندما هاجمهـا ألفونسـو الحادى عشر •

وما من داع فى أن نبالغ فى بيان أهمية الـورق ، فقد فتـح عصرا جديدا للحضارة ، فان نشر الكتب بأسعار رخيصة وانتشار التعليم بين

عامة الناس لم يصبحا أمرين ميسورين الا بعد أن استبدل العــرب ، الرقاق التى كان يستخدمها العالم قديما ، والاوراق الحــريرية التى استخدمها الصينيون ، بالورق العادى الذى نعرفه اليوم •

الفصل الخامس

التـاريخ الطبيعى

التاريخ الطبيعى

بعـد أن بدأ العـرب فى العلوم الطبيعيـة بالتعليق على المؤلفين اليونانيين ، عكفوا على دراسة الطبيعة نفسها وتدوين ملاحظاتهم وهكذا نجحوا فى اضافة ٢٠٠٠ نوع من الاعشاب الى مجموعة دايسكوريدس ، وكانت الادوية العربية ، تشتمل على العديد من النباتات والمواد الطبية مما لم يكن يعلم عنه اليونانيون شيئا ، فمثلا يرجع الى العرب الفضل فى استخدام الروائد والتمر الهندى والقرفة والمن وأوراق السامكى والكافور ، واستخدامهم السكر عوضـا عن عسـل النحل ، أدى الى سلسلة من التحضيرات اللذيذة والنافعة للصحة • فباستخدام السكر أمكنهم تحضير الاشربة والسوائل المسـكرة ، وحفظوا الاعشـاب والفواكه •

كما أن العرب هم الذين أدخلوا الروائح العطرية والاطياب الى الغرب ، وكذلك العطور والراتنجيات زكية الرائحة من الجزيرة العربية ، وعطر الورد ، وجوزة الطيب والقرنفل والفلفل • ومن بلاد الشرق الاسلامية جاءت الخضروات مثل الطماطم والاسعار جوس والخرشوف وكذلك كل أنواع الحلويات ومجمـوعة كبـيرة من الزهور مثـل (البنفسج) والياسمين والتيوليب والكاميليا والورود اليابانية ••• الخ•

كما أن القهوة مصدرها الاصلى هو اليمن ، كما أن أجمل الخيول هى الخيول العربية ، وأفضل أنواع العنز من آسـيا الصغرى ، وأشـهر الاغنام من مراكش • وقد تقدم العرب بالزراعة الى أمد بعيد كما كان لهم اهتمام قوى بالجيولوجيا •

الفصل السادس

الطب

الطـــب

كان الطب أحد العلوم التى استرعت انتباه المسلمين ، بعد الرياضيات والكيمياء • ففى القرون الأولى من التاريخ الهجرى ، أصبحت جزءا هاما من العلم ، ولهذا ظهر بينهم عدد كبير من الاطباء والمؤلفات الطبية •

ولقد لعب الاطباء المسلمون دورا حاسما فى العلوم الطبية فى الغرب • فقد ظلت كتابات الرازى وابن سينا وأبو القاسم وابن زهر ، أساس العلوم الطبية فى الجامعات الاوروبية على مدى قرون عديدة • فقد حازت المعاهد الطبية فى سالرينو وخاصة فى مونبلييه شهرة عالمية • وقد ظلت مجموعة المؤلفات الطبية التى نشرها الرازى (أبو بكر بن زكريا الرازى) تحت عنوان « الحاوى » وكذلك كتابه الآخر بعنوان « المنصورى » نسبة الى الخليفة المنصور الذى قدم اليه الكتاب ، ظلت هذه المجموعة لقرون عديدة أكثر المؤلفات الطبية استخداما وأعظمها تقديرا • وكان « الحاوى » أحد تسعة مجلدات تتكون منها مكتبة كلية طب باريس سنة ١٣٩٥م • وهو أول كتاب يصف بعض الدميات الطفحية مثل الجدرى والحصبة • وقد أدخل الرازى الى علم الصيدلة استخدام المسهلات المعتدلة ، والحجامة فى حالات الاصابة بنزف فى المخ والماء البارد فى حالات الحمى المستمرة • واليه ينسب الفضل فى اختراع الحزام (أو الفتيل) الذى كان يستخدمه كثيرا • وقد ترجمت

مؤلفات الرازى الى اللاتينية وطبعت مرارا وخاصة فى سنة ١٥٠٩م فى فينيسيا،وفى سنة ١٥٢٨م ، سنة ١٥٧٨م فى باريس • وآخر مرة أعيد فيها نشر مؤلفه عن الجدرى كان فى سنة ١٧٤٥م •

فكتابه « القانون فى الطب » نشر بالعربية فى روما سنة ١٥٩٣م فى خمس مجلدات هى بالترتيب عن الفسيولوجى ، الصحة العامة ، الباثولوجى ، علم الادوية ، والمواد الطبية • وظل هذا المؤلف البارع منذ القرن الثانى عشر حتى القرن السابع عشر أساس الدراسات الطبية فى جميع جامعات فرنسا وايطاليا وفى غضون القرن الخامس عشر صدرت منه خمسةعشر طبعة ، بل وفى بداية القرن التاسع عشر كانت تلقى عنه محاضرات فى كلية الطب فى مونبلييه ، وعلاوة على ذلك كتب ابن سينا كتابا عن « علاجات القلب » بل وكتب عددا من المنظومات الطبية وقد اشتمل دستوره للعقاقير الطبية على ٧٦٠ عقارا •

وأعظم تقدم حققه الاطباء المسلمون كان فى ميدان الجراحة ، فمنذ القرن الحادى عشر عرفوا كيف يعالجون الكاتاركتا (المياه البيضاء) وذلك باستخدام العدسة البلورية (أو ازاحتها عن موضعها) ، وحصوات المثانة ، والاتربة واستخدام المواد الكاوية والاحزمة والكى • كما عرفوا التخدير الذى يعتبر علما حديثا • فقبل العمليات المؤلمة كانوا يستخدمون عقارا من نبات اسمه الزوان ، الى أن يفقد المريض وعيه •

وزعيم الجراحين المسلمين هو أبو القاسم خليفة بن عباس من قرطبة المتوفى سنة ١١٠٧م ، ويقول عنه أحد علماء الفسيولوجيا : أن مؤلفاته ظلت مصدر الوحى لكل الجراحين منذ ذلك التاريخ حتى القرن الرابع

عشر ، وقد طبعت مؤلفات أبو القاسم فى الجـــراحة باللاتينيـــة فى سنة ١٤٩٧م •

كما أن الاندلس أخرجت عددا كبيرا من الاطباء الذين لهم شـــهرة كبيرة من بينهم ابن زهر وابن رشد ، وفضل ابن زهر الواضـــح هو ادخاله قوانين الظواهر العلمية الى الطب ، وأهم ما تميز به علاجه هو القـــوى الطبيعية التى فى الجســـم البشرى لشـــفاء نفســـه فى بعض الامراض ، وكان أول من جمع بين دراسة الطب والجراحة والصيدلة ، وكتاباته فى الجـــراحة تحوى أول ذكر لجـــراحة الشعب ، وتعليمـــات مفصلة لعلاج الخلع والكسور فى العظام •

وقد كتب ابن رشد (أبو الوليد محمد بن رشـــد) ، الذى غطت شهرته شارحا لأرسطو على شهرته طبيبا ، كتب شارحا « القـــانون » ابن سينا وكذلك شرحا على كتابات جالينوس ، ونحن مدينون له بمؤلفه عن الترياق وأيضا كتابا عن السموم والحميات •

أما مؤلفه الطبى الاساسى فهـــو «الكليات» طبع لأول مـــرة ســـنة ١٤٩٠م فى فينيسيا ثم أعيد طبعه عدة مرات فى بلاد مختلفة •

كما أن طب العيون مدين بوجوده لعلم العرب ، فكتاب على بن عيسى « مذكرات لأطباء العيون » لم يفقد أهميته حتى القرن التاســـع عشر وأول عملية لازالة الكاتاراكت (المياه البيضـــاء) « بالشفط » تمت فى سنة ١٢٥٦م بواسطة أبو المحاسن وهو أول من اخترع الابرة المجوفة •

كما أن ابن النفيس السريانى المتوفى فى دمشق سنة ١٢٨٩م وصف

بكل دقة الدورة الدموية قبل ثلثمائة سنة من سرفيت البرتغالى الذى ينسب اليه عادة هذا الاكتشاف •

كما أن الطبيب المصرى محيى الدين تطاوى وصف الدورة الرئوية فى احدى محاضراته فى جامعة فريبورج سنة ١٢٤٩ م•

أما بخصوص الصحة العامة فنكتفى باشارات موجزة هنا ، فنحن نعلم أن الديانة الاسلامية تحوى بعض القواعد الصحية الباهرة ، كالاستحمام المتكرر والامتناع عن الخمر ولحم الخنزير ، كما أن الاطباء المسلمين يعلقون أهمية كبرى على مراعاة القواعد الصحية فى علاجهم للأمراض •

ويقول جوستاف لوبون: ان المستشفيات العربية يبدو أنها كانت تبنى على أسس من وجهة النظر الصحيحة أفضل بكثير من مبانينا الحالية ، فكانت واسعة وبها موارد للمياه والتهوية •• وهناك أقوال مأثورة فى مدرسة سالرينو تحتوى على قيمة فيما يتعلق بالقواعد الصحية ، ونحن نعلم أن هذه المدرسة التى كانت تعتبر أفضل مدارس أوروبا ، مدينة بشهرتها للعرب •

الفصل السابع

الفلسفة

الفلسفــة

هناك الكثير مما يتسع له المجال ان أردنا آن نتتبع خطوة بعـد خطوة تقدم الفكر الاسلامى فى مجال الفلسفة ، ونحن هنا سنتناول الخطوط العريضة من أعمال المفكرين المسلمين فيما يختص بتأثيرها على تطور الافكار الفلسفية فى الغرب .

بدأت النظريات الفلسفية مبكرا فى العالم الاســلامى . وجاء وقت أجمع فيه بعض الكتاب على نكران الفلسفة الاســلامية . فأكدوا أن تعاليمها تتعارض مع حرفية القرآن ، أو هى تحمـل شبهة التشكيك فى العقائد الدينية حيث لم يكن لها مجال فى جو الاسلام المتشدد .

والى عهد قريب كانت كتب التاريخ المدرسية تقول أنه عندما فتـح العرب مصر ، فان الخليفة عمر أمر بحرق مكتبة الاسكندرية الشهيرة : لانه اما كان بها من الكتب مايتفق مع الفلسفة الاسلامية ، فلم يعـد لها حاجة ، أو كانت تتعارض معها ، فانها مؤذية .

ولكن من له المام بهذا الموضوع ، لم يعد يعر مثـل هذه الاقوال اهتماما أمام الادلة التى تدحض هذا الزعم .

وليس أيضا من العدل أن نقصر دور الفكر الاسلامى على مجـرد نقل الفلسفة اليونانية ، فان تأملات العرب الفلسفية تبدأ منذ القـرن

الأول الاسلامى ، وتظهر بالارتباط مع العقيدة الاسلامية ، فوجود الله ووحدانيتــه وجبروته وعدله ورحمتــه وســائر صفاته الالهية كانت موضوعات لرسائل دقيقة متعمقة ، وتفرعت عنها طرق مختلفة للفكر ، ونشأت مدارس متعارضة حول موضوع القضاء والقدر ، والحــرية الادبية ، الخلاص بالأعمال أو بالايمان ، خلافة الرسول كزعيم روحى وزمنى المجتمع الاسلامى ، وغيرها من الموضوعات •

ومن هذه الفرق الخوارج والمرجئة والقدرية ، وفى بداية القــرن الثامن ، ظهرت المدرسة الهــامة للمعتزلة • وكل هذه المدارس سبقت ترجمة المؤلفات اليونانية التى لم تبدأ الا فى عهد خلافة المنصور (٧٥٣م — ٧٧٤م) وهى دليل على استقلال تطور روح الاسلام •

وبنشر ودراسة المؤلفات القديمة ، أصبح الفكر الاسلامى أشــد تعقيــدا وأكثر عمقــا • وفى القــرن الثالث الهجرى تأسست المدرسة الفلسفية الاسلامية بزعامة « الكندى » وهى شديدة الارتباط بالفلسفة الهلينية ، كما تظهر فيها الاتجاهات الافلاطونية الحديثة ، وشرع عدد من كتاب هذه المدرسة فى محاولة التوفيق بين أفلاطون وأرسطو وبين الديانة الموحى بها • وأشهر هؤلاء الفارابى أعظم الفلاسفة المسلمين قبل ابن سينا ، ونحن مدينون له بمؤلفه «المدينة الفاضلة» ، ومنهم أيضــا ابن باجة وابن طفيل وابن رشد •

ولا أحد ينكر الآن أن العلمــاء المسيحيين قد اســتقوا الكثير من كتاباتهم •

وكان الفكر الاسلامى فى الفلسفة كما فى العلوم ، همزة الوصل بين الفكر القديم والفكر الحديث .

ويقول جاك ريزلر : أن من الحقائق الثابتة أن الاســلام نجح فى التوفيق بين التوحيد ، وهو ما نادى به العالم السامى القديم ، والفلسفة اليونانية « التى عليها قام العالم الاندو أوروبى » .

ويجب أن لا ننسى هذه الحقيقة وهى أنه فى الفــكر الفلسفى فان فلسفة العصور الوسطى الدينية ليست الا جزءا من الفكر الاسلامى أقل أهميـة ، وأقل تأصيلا من حركة الافكار التى جاءت بهــا المذاهب الدينية .

ففى الفلسفة كما فى العلوم أظهر المفكرون المسلمون ذهنــا باحثــا نفاذا فكل مسائل العلل الأولى التى عرضت لفكر الانسان ، وكل أشكال التأملات الفلسفية من التجريبية الايمانية الى المذهب الباطنى ، مرورا بالمراحل المتوسطة من الشكية والعقلانية ، جميعها تظهــر فى العديد من المذاهب والمدارس الفلسفية . واذا كنا قــد تمهلنــا لدراسة الفلسفــة الاسلامية بشىء من التفصيل ، فما ذلك الا لأثرها الكبير على الفلسفة الدينية والدنيوية فى أوربا فى العصور الوسطى ، فابن سينا وابن رشد كانت لهما شهرة فى الغرب أعظم من شهرتهما فى الشرق ، حيث اقتصرت شهرتهما على الطب ، وأهمية ابن سينا الذى يعتبره البعض ذروة تاريخ الفكر فى العصور الوسطى ترجع الى أن مؤلفاته لها طابع الموسوعات ، وسبق أن تكلمنا عن موقعه البــارز فى تاريخ الطب ، وقد أدى دورا لا يقل أهمية عن ذلك فى العلوم والفلسفة ، وكان له فضل انشاء مدرسة

علمية استمرت عدة قرون • فهو قد وضع قوانينا فلسفية وأعطاها اتساعا فى النظرة ، وتأثير أرسطو لا يغير شيئا من أصالة فكر ابن سينا • لقد كان قادرا على منافسة أفكار أرسطو على نفس المستوى العقلى ، بل وفى مرات كثيرة كان يصحح أرسطو ، أو يجعل آراءه تصل الى نتائجها المنطقية ، وأهم مؤلفاته هو كتاب الشفاء ، والهداية فى الحكمة ، وقصة حى بن يقظان وكتاب الاشارات والتنبيهات ••• الخ وأول ترجمة لمؤلفات ابن سينا ترجع الى القرن الثانى عشر •

وأثر ابن سينا فى الفلسفة الغربية هائل أو كما تقول مس جويشون : أنه لا يوجد قول لفلاسفة العصور الوسطى الا ويفحص لمعرفة مدى علاقته بفلسفة ابن سينا ، وكلما كان الفحص دقيقا كلما ظهر أن ابن سينا لم يكن مصدرا من المصادر التى استقوا منها بحرية ، بل أحد العوامل الرئيسية التى شكلت أفكارهم •

واعتبره البروتس ماجينوس مثالا ، مع أنه حارب الفلسفة العربية ككل ، كما أن رينان فى كتابه « ابن رشد ومدرسته » لم يتردد فى تأكيد أن القديس العظيم توما الاكوينى كان مدينا بكل شىء لابن رشد ، وتوما نفسه الذى تأثر كثيرا بابن رشد لم يكن غريبا عن فلسفة ابن سينا ، والبابا يوحنا الحادى والعشرين قبل اعتلائه كرسى البابوية قال بنظرية المعرفة التى استعاض فيها بابن سينا عن أرسطو»،كما أن وليم أوفرنييه، والكسندر أوف ويلز وغيرهم كثيرون استقوا من نفس هذه المصادر •

بل ان ابن رشد نجح نجاحا يحسد عليه فى الغرب أعظم من نجاح

ابن سينا فشروحاته لأرسطو جعلته يكتسب شــهرة أكثر من ســائر المؤلفين المسلمين •

ويظن أن ليشيل سكوت الفضل فى تقديم ابن رشد للعالم اللاتينى • فحوالى منتصف القرن الثالث عشر كانت قد ترجمت الى اللاتينيــة كل المؤلفات الهامة لفلاسفة الاندلس •

وكان من حظ ابن رشد الغريب ــ رغما عن أنفه ــ دورا مزدوجا فى تاريخ فلسفة العصــور الوسطى • فبعض يقدسونه مفسرا عظيما لأرسطو الحجة العالمية ، وبعض يهاجمه بوصفه قمة الضلال والفجور •

وان كان قلما يقتبس منه البروتس ماجينوس ، لكن أمــر القديس تومــا معقد نوعا ما فيقــول رينــان : «ان القديس تومــا هــو أخطر الاعداء لتعاليم ابن رشد وفى نفس الوقت ــ نستطيع أن نقول بدون خوف من تناقض ــ أنه كان التلميذ الأول للشارح العظيم ، ان البرتوس ماجينــوس مدين بكل شىء لابن ســينا ، أما القــديس تومــا فمدين بكل شىء لا بن رشد » •

والأب المحترم آسين بالاثيوس الذى عكف على دراسة أثر ابن رشد فى لاهوتيات القــديس توما ــ وهو يفرق بين ابن رشد ومريديه اللاتين ــ تناول كثيرا من أقوال فيلسوف قرطبة وقارنهــا بأقوال الدكتــور الانجيليكانى ، ويتضــح التشــابه فى أفكارهما فى استخدام تعبيرات متشابهة ، فلا يبقى مجــال للشك فى أثر الفيلسوف المسلم على أعظم اللاهوتيين الكاثوليك •

وقد بلغ أثر ابن رشد الذروة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر فكانت شروحاته تستخدم فى جامعات الغرب كمراجع أفضل من كتابات أرسطو ، وقد قرر جون أوف باسونتورب المتوفى سنة ١٣٤٦م ورئيس الكرادلة فى انجلترا وأستاذ هذا النظام ، قرر أن تكون كتابات ابن رشد منهجا لمدرسته ، كما أن بول أوف فينيسيا (المتوفى سنة ١٤٢٩م) مثال لامع للرهبنة الاوغسطينية ، يعترف جهرا بتعاطفه مع نظريات ابن رشد الاساسية •

وعندما نظم لويس الحادى عشر تعليم الفلسفة ، جعل دراسة أرسطو وشارحه ابن رشد ، دراسة اجبارية • كما أن فيسوميركانو الذى عينه فرنسوا الأول قام بتدريسها فى كوليج دى فرانس من سنة ١٥٤٣م ـ سنة ١٥٦٧م •

ولكن جامعة بادوا هى التى أصبحت قلعة الارسطاطيلية العربية فى ذلك العصر ، فقد كان ابن رشد هو فارسها المحلى (الذى لا يبارى) ، وظل الحال هكذا حتى القرن السابع عشر •

وقد سارت بولونيا وفيرارا وفينيسيا على درب روما الفلسفى ، وهى وان كانت قد لاقت تعضيدا حماسيا ، فقد كان هناك أيضا رد الفعل الشديد ضد الاسطاليطية العربية ومفسرها الرئيسى ، وقد نشأ هذا بالطبع من جانب اللاهوت القديم وانتهى أخيرا الى أصحاب الفلسفة الانسانية فى عصر النهضة •

وفى سنة ١٢٤٠م أمر وليم أوف أوفرنيه أسقف باريس بسحب كل

الكتابات التى لها طابع عربى • وقد أيد اتيان تمبيرا أسقف باريس سنة ١٢٦٩م هذا الحكم ، ولكن كل هذه الخطوات لم تكن كافية للقضاء على الحركة ، بل ظلت الفلسفة العربية تتقدم ، بل أن سيجر دى أبانت الذى يعتبر مؤسسى الحركة التى نسميها الرشـدية (نسبة لابن رشـد) اللاتينية أو الرشدية المسيحية ، كان يعلم فى جانعة باريس مابين سنة ١٢٦٩م سنة ١٢٢٧م • وفى سنة ١٢٢٧م أمر البابا باعادة فحص الأمر، مما نتج عنه تحريم ٢١٩ من الكتابات المدمرة ، وطرد سيجر من الجامعة واستدعى للمثول أما محكمة التفتيش وحكم عليه بالسجن مدى الحياة ، ولكن رغم كل ذلك لا تزال فلسفة ابن رشد صـامدة وتكسب أرضـا جـديدة •

ولم تكن الفلسفة الانسانية أقل من ذلك عداء لابن سيناء ، فقد كان فى نظرهم أن الشرح يمثل الفلسفة العربية والروح العربية ، وحيث أن المصادر الاصلية القديمة أصبحت بين أيديهم ، أصبح العرب موضوع هجمات عنيفة ، وبدون اعتبار للخـدمات الجليلة التى أداها العـرب للفلسفة الانسـانية بضمانهم لاستمرارية المعـرفة اليونانية ، وجهت اليهم الاتهامات بافساد الاذهان وتخريب الحضارة القديمة •

فقد كتب بترارك ـ الذى كان يعتبر ، بحق ، أحـد أوائل المحدثين الى صديقه جون دوندى « اننى أكره هذا الجنس ، انه من الصعب جدا اقناعى بأن خيرا يمكن أن يصدر عن العرب » •

ولكن بالرغم من هذا الهجـوم المزدوج من اللاهوتيين وفلاسـفة الانسـانية ، وبالرغم من قرارات مجامع لاتيران وترنت ، واضطهادات محاكم التفتيش ، صمدت فلسفة ابن رشد حتى القرن السابع عشر •

كانت حركة الافكار التى أثارها ابن رشد واسعة المدى ، والنقد الذى وجه اليها كان متناقضا لأبعد مدى حتى يصبح من اللازم بذل جهد كبير لفهم حقيقة شخصية الفليسوف •

وكثـيرا ما تبدو الفجوة كبيرة بين الفـكر الاصيل للشـارح وبين الافكار التى نسبت اليه • ففلسفة ابن رشد شىء ؛ والرشدية (ما ينسب اليه من تعاليم) شىء آخر ، ومن السهل التمييز بينهما بكل وضوح •

ولا تكفى نظرة عابرة لدراسة هذا الموضوع • ولكننا نرجو أن يكون واضحا مما سبق أن ابن رشد ساد على الفلسفة الغربيـة ، لعدة قرون وأن تعاليمـه — حتى وان كانت قد حـرفت أو شـوهت من المريدين المتحمسين أو بالخصوم المعاندين — قد أحدثت ثورة فى تفكير المستنيرين فى أوروبا وأسهمت فى تحرير الفكر الغربى من بعض القيود التى كانت تكبله •

الفصل الثامن

الآداب

الآداب

لعل أعظم ما بلغه الفكر الاسلامى هو ما أسهم فى الفكر الفلسفى ، وبالمقابلة مع ذلك كان تأثيره فى الآداب أقل شأوا ، ولو أنه لعب دورا حاسما فى بعض المجالات •

واذا كان عند أحد شك فى ذلك فما عليه الا دراســة مولد الشعـــر الغنائى الحديث فى أوروبا ، فقد ظهــر تقريبـــا ، وفى وقت واحد ، فى اسبانيا وفرنسا فى بداية القرن الثانى عشر ثم انتشر الى ايطاليا وسائر أوروبا وكانت زوايات الحب الاسـبانية والاناشـيد الرومانسـية أول ما ظهر فيها ، ونهضة الآداب فى الاقطار الغربية تتخطى حــدود التاريخ الاوروبى ، وتعتبر نقطة تحول فى حضارة الغرب •

ويكتب جوستاف كوهن : « من المستحيل المبالغة فى تقدير القيمــة الخلاقة والملهمة للشعر البروفنسى سواء فى مجال المشاعر أو مجــال الفن ، فهو الأم للشعر الجديث ولعله يفوق فى ذلك الشعر اللاتينى ، فبغير هذا لا يمكن تعليل ظهور الشعر الايطالى أو الشعر الاسـبانى أو المنشدين الالمان ، وبالأولى الشعر الرقيق فى شمال فرنسا •

ولكن ما هى بالضبط « أغنية » شعراء التروبادور ان أهم مميزات هذا الشعر التى تميزها عن سائر أشكال قصائد الحب التى كانت معروفة قبل ذلك ، هى المقام المثالى الذى أعطوه للمرأة ، بل والتعبد فى محرابها

والارتفاع بالحب الى أقصى درجات العفــاف والروحانيــة وهذه هى الفكرة المهيمنة على شعر وليم التاسع دون اكوينتين ، وأشعار ماكابرو ، وجوفرى رودل وغيرهم من الشعراء الفنانين الذى جاءوا بعدهم كدانتى وبترارك •

ويعجب الانسان بخصوص أصل هذه الرؤية للمرأة والتى تختلف تماما من عادات البلد الذى ظهرت فيه فجأة ، فنمــاذج وينابيع هــذه الأشعار البروفنسية الغنائية لا يمكن أن نجدها فى المجتمعات الاوروبية اليونانية ، ولا بين الرومان ولا بين العقلانين •

وكتــابات جوليان ورامون مننديث بيــدال ودراسات ى • نيكلى لا تترك مجالا للشك فى أن كل أشعار الترو بادور التى يتجلى فيها مثل هذا التغير العظيم فى أساليب وفكر ومشاعر الغرب ، انما تنبع مباشرة من الشعر العربى الاندلسى • وقد أوضحت الابحاث الاخيرة للمدرسة الاسبانية فى التاريخ ، مدى التشابه العظيم بين الشعر الاندلسى الغنائى والنمــاذج الأولى التى ظهــرت فى نهــاية القــرن التاسع ، والشعر البروفنسى حتى يبدو من المستحيل تعليل هذا التشابه بدون الاعتراف بتأثير أحدهما على الآخر •

هذا الحب الافلاطونى والارتقاء ، الى أعلى درجات السمو والولاء لارادة امرأة واحدة ، والخدمات التى تؤدى باسم المحبــة ، والتلذذ الغريب بالمعاناة التى يسببها الحب ، كل هذه كانت الاغراض العــامة للشعر العربى منذ القرن الثامن ، ولقد ظهر هذا الشعر فى الاندلس فى القــرن التاسع فى «الأزجال» الشعبية ، وهــو ما يمثــل أروع النتائج لاجتماع الحضارتين العربية والرومانية •

والخطأ المأساوى للحروب الصليبية قد وجه ضربة قاضية لهــذا الامتزاج الناشىء بين حضارتى البحر المتوسط،والذى كان تطوره السوى كفيل باثراء البشرية فنيا وثقافيا اثراء بلا حدود •

ولكن حتى فى أثناء الحروب الصليبية لم تنقطع تماما العــلاقات الاقتصادية والعلمية والفنية ، فاستمرت الصلات بين الدول الاسلامية والامارات الاسبانية وبلاط بروفنس •

وفى هذه الصلات ، احتل ولا شك الشعر والموسيقى مكانة رفيعة ، فكانت الامارات المغربية هى مهد الشعراء والموسيقيين والراقصين الذين فتنوا قصور أوربا الجنوبية •

فالأغانى والرقصات ، التى شكلت حلقة الربط بين الشعب الذى كان من السهل عليه أن يفهمها وأن يستمتع بها ، فتحت الطريق أمام الشعر الغنائى ولم يكن ينفصل فى ذلك الوقت عن الموسيقى •

والدراسات البارعة التى قام بها آســين بالاثيوس من المصــادر الاسلامية للكوميديا الالهية ، وقد بينت تأثر دانتى بالمتصوف الكبــير محى الدين بن عربى ، والشــاعر الضرير أبى العــلاء المعرى ، الذى لا يضــارع شعره الرائع ، والــذى يتضمن فلسفة شــديدة التشاؤم والتشكك ، والقصة الفلسفية «حى بن يقظان» التى كتبها ابن طفيــل ، والتى ترجمها الى اللاتينية ادوارد بوكوكى الاصغر سنة ١٦٧١م ، ومنها الى أغلب اللغات الاوروبية • وكانت هى التى ألهمت دانيان ديفو أن يكتب « روبنسن كروزو » على نهجها •

كما أن ابن حزم ، من أعظم العقول فى اسبانيا الاسلامية ، كان له تأثير باق على آداب الغرب ، فكانت شديدة الخصوبة ، كتب عددا من الخرافات والحكايات والروايات الأخلاقية التى انتشرت منذ القــرن الثـــالث عشر فى كل أنحـــاء أوروبا ، وترجمت خـــرافاته الى الاسبانية بواســـطة ألفونسو الحكيم ملك قشتالة ، ثم الى اللاتينيـــة والعبرية والفارسية والفرنسية ، وقد اعترف لافونتين بأنه كان أحد المصـــادر التى أخذ عنها • كما أن بوكاشيو وشوسر وكثيرون من كتاب القصص الألمان تأثروا به بدرجات مختلفة •

كما أنه من اللازم أن نؤكد التأثير الواسع المدى الذى كان «لألف ليلة وليلة» على عدد كبير من قراء الغرب •

ولا يسعنا فى مجرى هذا الحديث ، الا أن نذكر أن القصـــائد الرائعة لتنتسون وبرونتج بها آثار واضحة للالهام العربى •

كما أن دون كيشوت لسرفانتس تحمل الى حد بعيد الروح العربية ، ولقد كان مؤلف هذا العمل الخالد سجينا فى الجزائر لفترة من الزمن ، وادعى مازحا أن أصل كتابه كتبه من العربية •

ويمكن للمرء أن يستخلص ما استخلصه فيليب حتى « بالاجمال أن أعظم ما أسهم به العرب فى آداب العصور الوسطى فى أوروبا هو التأثير على الشكل ، واليهم يرجع الفضل فى أن الخيال الغربى استطاع أن يحرر نفسه من القواعد الصارمة التى ألزمته بها التقاليد » •

ولا نستطيع ختام هذا الفصل عن الآداب الاسلامية دون أن نشير

الى الشعر الفارسى فهو من أعظم مفاخرها ، حقا انه لم يؤثر تأثيرا مباشرا فى تطوير الفكر الغربى ولا فى تنقية الاحاسيس الغربية ، ولكنه بألوانه العجيبة وأسلوبه الغنائى الدقيق ، وبراعتـــه وسمو جمـــاله استحوذ على اعجاب العالم كله ، كما أن انتشار هذا الشعر ، كان خارقا للعادة • فقد تحدث سادة الآداب الاوروبية ، وليس صغارهم فحسب ، عن الشعر الفارسى بكل حماسة ، فقــد قال جوته وهو يتحـــدث مع تشانسلار فون مولر : « على مدى خمسة قرون لم يكن لدى الفرس سوى سبعة شعراء يعترفون بهم ، ولكن كان من بين من رفضوهم من يفضلنى أنا » •

وهؤلاء السبعة المشاهير فى الادب الفارسى هم : الفردوسى ، وهو أشهر شعراء الملاحم ، وجلال الدين الرومى وهو أحد كبار شـــعراء المتصوفين فى العالم ان لم يكن أعظمهم ، والسعدى وهو شاعر الفضيلة من شيراز الذى يرتبط اسمه بالفضيلة والشعر الغنائى ، والأنورى الذى لم يتفوق عليه أحد فى ميدان الاطراء ، وحافظ الشيرازى الشـــاعر الرقيق الذى كتب فى الحب والربيع والخمر ، والذى كان له تأثير بالغ على جوته ، والنظامى الشاعر الرومانتيكى الشهير ، والحاجى الذى قال عنه « اتيه » أنه يجمع ببراعة فائقة بين السمو الادبى عند السعدى ، والتصوف الرائع لجلال الدين الرومى ، والتوافق اللطيف عند حافظ » •

وكان حافظ أول شاعر فارسى يحظى بالشهرة فى أوروبا ، ويرجع الفضل فى ذلك الى المستشرق الالمانى فون هامر بورجستال الذى كان له فضل تقديم سيد « الغزليات » (شعر غنائى) الى القراء فى الغرب • وقد ظهرت له ترجمة كاملة لديوان شعر حافظ فى ١٨١٢م — ١٨١٣م •

والحق يقال انه لم يجذب الا انتباه دوائر محدودة من رجال الأدب • ولكن حدث شيء آخر عندما نشر جوته ديوانه سنة ١٨١٩م ، ونحن نعرف أن هذا الكتاب حمل هذه المقدمة : « اذا دعونا الكلمة زوجة والنفس زوجا ، فمن يمتدح حافظ فقد شهد زواج هذين الاثنين » كما تقرأ فيه أيضا : « لقد عبر الشرق البحر المتوسط عبورا عجيبا ، ومن يعرف ويحب حافظ هو وحده الذى يستطيع فهم أنشودة كالدرون » •

ولقد ترجم ديوان حافظ جزئيا أو كليا الى اللغات الاوربية ، ولكن شهرة حافظ وشهرة غيره من الشعراء فى الشرق والغرب ، قد بزتها الشهرة العالمية التى حازها عمر الخيام ، فهو بغير شك أحد الشعراء الذين ذاع صيتهم فى نصفى الكرة •

.. يوجد عى الاقل اثنا عشرة ترجمة فى الفرنسية للرباعيات ، كما توجد الكثير من الترجمات الانجليزية والالمانية والروسية والايطالية والدانمركية والمجرية والتركية ، بل أن بعض الرباعيات قد ترجمت الى لغات أخرى بما فيها لغة الباسك والعبرية — فى أواسط شرق أوربا — والرومانية •

ونستطيع أن نقول ان هناك تقديرا بالغا لهذا الشاعر فى الاقطار الأنجلوسكسونية • ونادى عمر الخيام الذى تأسس فى لندن سنة ١٨٩٢م كان بداية لانشاء الكثير من النوادى المتشابهة •

الفصل التاسع

الجغرافيا والتاريخ

الجغرافيا والتاريخ

يقول ريذان « ان غرام العرب بالارتجـال من أبرز سماتهم التى ساعدتهم على ترك طابعهم العميق على تاريخ الحضـارة فحتى عصر الرحلات الملاحية الرائعة التى قام بها الاسـبانيون والبرتغاليون فى القرنين الخامس عشر والسـادس عشر ، لم يسهم شعب كمـا أسهم العرب فى توسيع مفهوم الانسان فى الكون واعطـائه فكرة دقيقة عن الكوكب الذى يعيش عليه وهو أساس كل تقدم حقيقى » •

فمنذ القرن التاسع استطاع التجار العرب ــ وهم أول من جاب هذه المناطق البعيدة ــ أن يزوروا الصين وأفريقيا وأقصى الشمال حيث تقوم جمهوريات الاتحاد السوفيتى الآن • وقصة رحلة شخص اسـمه سليمان ، التى كتبها أبو زيد من سنة ٨٥١م ــ سنة ٨٨٠م ، كانت أول كتاب ينشر عن الصين • والمسعودى (حسن على المسعودى) الذى اعترف به العلماء فى كل العالم فى نهاية القرن السابع عشر ، ارتحل فى منتصف القرن العاشر فى جميع جهات امبراطورية الخلفاء من أقصاها الى أقصاها • وعلاوة على ذلك زار سيلان ومدغشقـر وزنجبار • وفى مؤلفه الشـهير « مروج الذهب » يصف طبيعـة الاقطار التى رآها : « جبالها وبحارها وممالكها وأسرها المالكة ، وكذلك معتقدات وعادات سـكانها • »

وابن هيكل البيروتى ، والادريسى وابن بطوطة كانوا من الرحالة والعلماء وقد ألفوا كتبا جغرافية ثمينة ، وفتحوا أمام الغرب أفاقا لم يكن يحلم بها . فالادريسى الذى ولد فى كبوتا ١٠٩٩م وعاش فى بلاط ملك بالرمو (عاصمة صقلية آنذاك) كتب كتابا جغرافيا للملك روجر الثانى ملك صقلية . ويقول سيديلوت : « على مدى ثلثمائة وخمسين عاما ، ظل رسامو الخرائط الاوروبيون لا يفعلون شيئا سوى اعادة نسخ هذا الكتاب مع بعض التغيرات الطفيفة » .

ولنذكر بصفة خاصة خريطة العالم الشاملة التى رسمها أولج بج حفيد تيمور (تيمور لنك) مصنف الجداول الفلكية الشهيرة باسمه . فعندما قام بعملها استند أساسا على كتابات نصر الدين الطوسى ، وملاحظات الكوشاجى ، الذى قام بناء على أوامره برحلة الى الصين وحقق قياس درجة خطوط الطول وحجم الكرة الارضية .

ولنا كلمة عن الخرائط البحرية التى وضعها العرب ، فقد كتب سيديلوت : « لقد رأى فاسكو دى جاما واحدة منها فى سنة ١٤٩٧ تخص ساللا الذى كان أحد بربر جوجرات ، أخذها معه هدية الى ميلندا . كما أن خريطة أخرى وضعها عربى اسمه عمر ، ساعدت البوكيرك على عبور بحر عمان والخليج الفارسى » .

بل لعل مؤلفات العلماء المسلمين ساعدت فى اكتشاف أمريكا ، ففى خطاب كتبه كريستوفر كولمبس من هايتى بتاريخ أكتوبر ١٤٩٨م يذكر فيها اسم ابن رشد على أنه أحد المؤلفين الذين دفعوه الى الحدس بوجود العالم الجديد .

وعدد الكتاب المسلمين الذين تركوا لنا مؤلفات فى التاريخ كبير جدا • ففى القاموس التاريخى للكاتب الثعلبى المسمى الحاج خلف ، يوجد أسماء عدة آلاف من المؤرخين المشهورين •

وترجع أقدم الكتابات عن التاريخ الى عصر الامويين ولعل أحد الكتاب الاوائل كان أبو مناف الذى يقتبس منه المسعودى فى « مروج الذهب » وقد مات سنة ١٣٠هـ (٧٤٧م) ويعيب علماء الغرب المؤرخين المسلمين اهتمامهم الشديد بتسجيل الاحداث واهمالهم الافكار العامة والكشف عن الحلقات التى تربط أحداث التاريخ ، ولعل لهذا اللوم ما يبرره ولكن جزئيا فقط •

وبكل يقين لم يهتم أغلب المؤرخين المسلمين بوضع النظريات الكثيرة التى شغلت فكر علماء الغرب ، والتى أصبحت سمة علم التاريخ فقد اعتبروا أنفسهم بالأحرى — جامعى معلومات ومسجلى بيانات للاجيال اللاحقة وأحجموا عن أن يقيموا من أنفسهم مفسرين أو قضاة للاحداث الماضية •

وهذا المفهوم للتاريخ يختلف بغير شك عن مفهوم الغرب • ولكن هل هذا أمر حسن أم ردىء ؟ حول هذا يدور الجدل ، وعلى أية حال فان المعترف به أن المؤلف الذى يأخذ على عاتقه نقل المعلومات التى سلمت له بدون تعليق أو نقد ••• يبدى اخلاصا وحيدة أكثر من المؤلفين الذين يمدونا بوثائق قد نقحوها وصححوها أو زيفوها حسب وجهات نظرهم •

ولكننا ونحن نقول ذلك ، فانه من الظلم أن نتهم المؤرخين المسلمين بضيق الفكر وعدم القدرة على النقد ؛ فانهم — على العكس من ذلك — قد اكتسبوا شهرة باتساع نظرتهم واثارة الاهتمام بمسائل كان التاريخ الغربى يعتبرها خارج مجاله ، وهكذا شغل أدب التاريخ مكانا واسعا فى مؤلفاتهم •

ولسنا فى حاجة الى القول بأننا لا نستطيع أن نذكر هنا الا أسماء قلة من هؤلاء المؤرخين المسلمين على سبيل المثال فقط •

فقد اكتسب الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير من طبرية) والمولود سنة ٨٣٩م والمتوفى سنة ٩٢٢م ، مكانه مؤرخا ورجل قانون ، وعالما دينيا شهرة لا يكاد يدانيه فيها أحد فى الشرق ، ويعتبره المسـعودى أعظم أسلافه ويقول ان « حوليات أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ، تبرز بين كل المؤلفات التاريخية ببراعتها بل وتفوقها جميعها ، فالصـدق فى رواية المعلومات والعادات والحقائق العلمية فيها تجعلها نافعة ومثقفة للذهن » •

وكتابة « الحوليات » يعد الكتاب الاساسى فى التـاريخ العـربى ، فقيمته فيما يتعلق بتاريخ أصول الاسـلام ، تجل عن التقـدير ، فهو يتضمن معلومات ثمينة لا تحصى عن اللغة والعوائد والشخصيات فى ذلك العصر • ويعود تاريخ هذه الحوليات الى سنة ٩١٤م •

أما المسعودى (حسن على المسعودى) المولود فى بغداد فى نهاية القرن التاسع والمتوفى فى القاهرة سنة ٩٥٦م ، فيبز الجميع ، فهو مثل

الطبرى ، فى اتساع تنوع معارفه ، وقد وجه انتباهه الى العديد من المسائل المختلفة ، فمن بين ما ندين به له ، دراساته المفصلة لتاريخ الادب ، فيقول رينان :

« نستطيع أن نقول : ان المسعودى ، توقعا منه بأساليب النقد الحديث أدرك مدى ما يستطيع الادب أن يلقيه من ضوء على التارخ السياسى والاجتماعى لأى عصر » •

وقد جمع المسعودى تاريخه فى كتابه الذى يحمل عنوان « أخبار الزمان » والذى يتكون من أكثر من عشرين مجلدا ، وللأسف لم تصلنا هذه الكتب ، اذ لم تصلنا من مؤلفات هذا المؤرخ الشهير سوى «مروج انذهب» وكتاب «التعليم» •

وكان ابن مسكوية المؤرخ البارز المتوفى سنة ١٠٣٠م أحد الاساتذة المسلمين فى علم الأخلاق وتكفى كتاباته لاثبات الظلم وضيق الفكر عند من ينكرون على المؤرخين المسلمين روح النقد • فهل العقل الاصيل الذى يتميز بالاستقلال والشك فى كل شىء فى ابن مسكوية هو الذى كتب الكتاب الهام « تجارب الأمم » يعالج فيه تاريخ فارس قديما والعرب الى زمانه وباتجاه عقلانى يظهر حماسا معتدلا للاسلام ، فهو لا يذكر تاريخ النبى ، ويلاحظ أن توسع العرب كان قد بدأ قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد اتجه اهتمامه الى أمور الفلسفة السياسية والمسائل الاقتصادية ، ويعالج فى يسر ، الأمور الاجتماعية والادارية •

وعلى نفس المنوال ، نجد كتابات المكارى (أحمد بن محمد

المكارى)أشهر مؤرخى أسبانيا المسلمة الذى ولد فى أواخر القرن السادس عشر وتوفى سنة١٦٣١م،وكتابه الشهير«مختارات من تاريخ وآداب العرب فى أسبانيا» نشر فى ليدن فيما بين سنة ١٨٥٥ م ، سنة ١٨٥٩ م ، وهـو منجم ضخم من المعلومات عن مناطق اسبانيا المختلفة وحيـاة وعادات وأخلاق سكانها ، وهو يرسم بأسلوب حى دقيق ، صـورة بارعة عن الحياة اليومية فى الاندلس ، يتضح منها أنه كان ثمة نشاط عقلى واسع لبس فى المدن الكبرى فقط مثل قرطبة وغرناطة وأشبيلية ، بل على طول البلاد وعرضها .

والتفاصيل التى يرويها عن حياة المحامين والاطبـاء والموسيقيين والمغنيين والنساء المتعلمات من شاعرات ومحاميات ، لها قيمـة لا تقدر فى تصور المجتمع الزاهر فى أسبانيا الاسلامية .

ورشيد الدين (فضل الرشيد الدين المعمدانى) هو أحد عظمـاء المؤرخين ان لم يكن أعظم مؤرخى ايران وتتنافس همدان وقزوين وتبريز فى ادعاء مولده فيها . بوصفه مؤرخا من الدرجة الأولى ، كتب رشيد الدين تاريخه عن المغول بأسلوب رصين ، وذلك بناء على طلب غازان خان ، وأضاف اليه لمحة خاطفة عن الاجناس الأخرى ووصفا للمناطق التى عرفها المغول ، وكان هذا الكتاب فى أربعة مجلدات ويحمل عنـوان « جمع القرارات » . (أو جماع التاريخ) وقد أنجزه سنة ١١٣٠م ، ومؤلفات رشيد الدين هى أحجار الاساس فى معرفتنا لتـاريخ العصر المغولى والتركى .

الفصل العاشر

العلوم السياسية وعلم الاجتماع

العلوم السياسية وعلم الاجتماع

ان المؤلفات المخصصة للفلسفة السياسية والاجتماع هى احدى اللآلىء الحقيقية فى الأدب الاسلامى • فقد وضع الكتاب فى اللغات الإسلامية الثلاث : العبرية والفارسية والتركية نظريات عميقة متعددة فى فن الحكم والمشاكل المختلفة فى حياة المجتمع •

لقد كتب الفارابى أعظم فلاسفة المسلمين قبل ابن سيناء ، كتابا ذا روحانية سادية ودشاعر وجدانية نبيلة أسماه « المدينة الفاضلة » •

وبدءا من المبدأ الافلاطونى القائل بأن الانسان خلق ليعيش فى مجتمع ، وصل الفارابى الى النتيجة القائلة : « ان الدولة جيدة التنظيم يجب أن تغطى كل المسلمون وأن تضم كل البشرية » •

وفكرة الدولة العالمية تثير فى الفكر الاوربى مفهوم الامبراطورية الرومانية والصراع بين البابوية والامبراطورية خلال العصور الوسطى ، أو نظريات بعض أصحاب « اليوتوبيا » (المدينة الفاضلة) فى العصور الحديثة • ولم تكن هذه الفكرة جديدة على الفكر السياسى بل انها متضمنة فى المفهوم الثيوقراطى (حكم رجال الدين) الاسلامى• والمدينة الاسلامية ما هى الا تعبير واحد عنها ، ومن منطلق اتجاهاته الصوفية فى فلسفته ، فانه يضع للدولة الشاملة ولحكامها أهدافا أدبية سامية •

وكان الفــارابى يؤمن بأن واجب هذه الدولة أن تضمن للمواطنين حكومة كاملة على الارض والسعادة بعد الموت • والمدينة الفاضلة يجب أن يديرها حاكم واحد أعلى تتوافر فيه الصفات الآتية : ذكاء عظيم ، وذاكرة لا تخون ، وفصاحة ، وعقل مولع بالدرس ، واعتدال ، وشهامة وحب العدل ، وثبات على الهدف بلا تردد ، وعزم أكيد على فعل الخير • فاذا لم تتوافر هذه الصفات فى رجل واحد ، فيمكن البحث عن اثنين أو ثلاثة أو أكثر من الرجال الذين تتوافر فيهم معا كل هذه الصفات اللازمة للحكام ، وأن يعهد اليهم بحكم الدولة • وهكذا يصل الفارابى — كمــا فعل أفلاطون — الى حكومة الحكماء ، أو الجمهورية الارستقراطية •

ان هذه الآراء التى تتميز باتساع الافق والفكر ، تناقض بشــدة مفاهيم ابن زاهر — وهو عربى من صقلية عاش فى القرن الثانى عشر — الذى يقرن كتابه « سلام المؤتى » بكتاب « الأمير » لميكافيللى ، فهو يحتــوى على بعض الآراء المتطرفة من نفس الآراء الفلورنسية ، ولكن أشد دهاء وأكثر خداعا •

ولقد ألف الموردى (٩٧٢م — ١٠٥٨م) — وهو محام مشهور وكان كبير قضاة مدينة استواء بالقرب من نيسابور — كتابه المشهور « كتاب الأحكام السلطانية » (وهو يعبر عن قواعد القوة فى الحكم) ، وهذا الكتاب الذى نجد فيه بعض النظريات الهامة عن الخــلافة ، مخصص لقوانين الدولة الاسلامية السياسية والاجتماعية والقانونية ، وقد ترجم كتاب الأحكام السلطانية الى الفرنسية ، كما ترجم اليها أيضا كتاب آخر من كتب الموردى اسمه « النظام الحكومى » •

وهناك علم آخر وهو ابن خلدون (١٣٣٢م — ١٤٠٦م) • ان أولئك الذين ينتقدون الحضارة الاسلامية ، ولا يرون فيها الا انعكاسا باهتا للثقافة الهلينية ، وينكرون أصالتها ، يضطرون الى الاعتراف بأننا مدينون لبراعة ابن خلدون فى كتابه عن فلسفة التاريخ وهو أول كتاب فى هذا الصدد ، فمن قبله لم تكن لدى أى عربى أو أوروبى ، فكرة عن التاريخ بمثل هذه النظرة الواعية والفلسفية أيضا •

والرأى الشائع عند النقاد عن ابن خلدون هو أنه أعظم مؤرخ اسلامى ، بل أحد عظماء المؤرخين فى كل العصور • فقبل رجال الاجتماع فى العصر الحديث بزمن طويل ، قبل كونت وفيكووماركس وشبنجلر ، اعتنق ابن خلدون نظرية تطور المجتمع البشرى وحاول أن يقدم تفسيرا عقلانيا لمسار التاريخ •

لقد كتب ابن خلدون تاريخ العالم فى ثلاث مجلدات مع مقدمة وسيرة لحياته ، والمجلد الاول مع المقدمة جزء قائم بذاته نطلق عليها اسم «المقدمة» وهى فى ذاتها أثر خالد واليها يرجع الفضل فى شهرة المؤلف العالمية ، ففيها نجد — لأول مرة — نظرات عامة فى التاريخ والاشكال المختلفة من الحضارة ، وأثر المناخ والحياة البدوية ، والحياة المستقرة ، والعادات المميزة لكل حضارة من هذه الحضارات ، وكذلك مااحتوته من مبادىء اجتماعية وعلوم وفنون • ويتكلم المؤلف عن العلوم القرآنية ، والرياضيات ، والغناء وموسيقى الآلات ، والزراعة والحرف المختلفة • انه دائرة معارف حقيقية تتخللها روح فلسفية عميقة حيث يعتبر التاريخ مجرد جزء من الفلسفة •

يقول ابن خلدون : «النظر فى الطبيعة الداخلية لعلم التاريخ ، انه فحص وتحقيق الحقائق ، وتمحيص دقيق للأسباب التى أدت اليهـا ، وفهم عميق للظروف التى نشأت فيها الاحداث ، وكيف بدأت • فالتاريخ اذ هو فرع هام من الفلسفة•ويجب اعتباره واحدا من العلوم» • وهذا هو المفهوم الحديث للتاريخ ، فدوره الأول هو تحليل الحقائق والبحث عن الاسباب ، ويفترض مقدما المعـرفة الشاملة للحضارة البشرية وعلم النفس •

وفى الواقع من العسير أن نحلل هنـا مؤلف ابن خلدون الضخم ، فملاحظاته البارعة والعبقرية على ضعف الحضـارات والتطور الدورى، والدور البـارز الـذى يلعبه المستنيرون فى تكوين الدول التى تؤيدها نظريته ، هى ملاحظات ساحرة حقا • ان نقطة الانطلاق عند ابن خلدون هى تأكيده بأن هناك تشابه بين حياة الدولة وحياة الانسان ، أو أى كائن حى آخر ، فالدول تولد وتنمو ثم تموت ، كما أنها تخضع لقوانين معينة للتطور الطبيعى • ويكرس ابن خلدون جهوده لاكتشاف وتفسير هـذا التطـور •

وآراؤه الاقتصـادية لها صـلة وثيقة بالآراء الحديثـة مثل آرائه السياسية • فيقول هذا الكاتب المغربى : «ان الدولة هى التاجر العظيم، انها كتاجر بارع بعيد النظر من واجبه أن يضمن أن المال الذى يصله من الضرائب ، يجب أن يجـد طريقـه للدوران بين الشعب • والضرائب المعتـدلة هى أكبر حافز على العمـل • ومن الجانب الآخر فان زيادة الضرائب ــ بدون وعى وتفكير ــ يجعلها عقيمة بلا ثمار » • ويناقش فى نقـد عميـق وتفصيل ، المصـادر والاحتكار والسيطرة الحكومية على

التجارة ، قبل أن يصل الى النتيجة القائلة : ان ثروة الدولة تتوقف على سكانها وعلى روح المغامرة وعلى انتاجيتها •

ان تدخل الدولة ومغالاتها فى ذلك بواسطة السلطات العامة يقلل من ثروتها ويعوق النمو الطبيعى لاقتصادها • وفى الحقيقة لم تضف المدارس الحديثة للتحرر الاقتصادية شيئا الى هذا الرأى الذى قال به ابن خلدون فى نهاية القرن الرابع عشر •

وأبو الفضل (١٥٥١م — ١٦٠٢م) الذى كان فيلسوفا وعالما ورجل دولة وصديقا شخصيا لامبراطور عظيم مستنير ، أبو الفضل هذا يعد واحدا من أعظم رجال الهند فى العصر المغولى ، فكتابه « أكبر نامه » وهو بلا شك أعظم مؤلف عن تاريخ الاسلام فى الهند ، فهو ينقسم الى ثلاثة أجزاء ، أولها يحتوى على تاريخ غزوات تيمورلنك فى الهند ، وغزوات أمراء العائلة التيمورية الذين حكموا الهند • وثانيها يخصص تماما لتاريخ الحكم المجيد الطويل للامبراطور « أكبر » • وثالثها الذى يسمى « عين أكبرى » ينقل لنا كمية كبيرة من المعلومات الخاصة بأعمال دولاب الدولة القانونية والادارية والظروف الاجتماعية للهنود وديانتهم وفلسفتهم ، وتتناول عدة فصول مسائل تتعلق بفنونهم وحرفهم وماليتهم العامة ، والتقارير الادارية والاحصائيات ، وفصول غيرها تتناول التحسينات الفنية فى أسلحة جيوشهم ، والكتب التى ترجموها ••• الخ• كما تحتوى « عين أكبرى » على كمية كبيرة من أمثالهم السائرة وأحكامهم الاخلاقية ، والمبادىء السياسية « لأكبر » التى سجلها وزيره الامين وصديقه يوما بعد يوم •

ويقول كارادى فو : « هذا العمل الخارق للعادة ، النابض بالحياة والافكار والمعـرفة ، حيث تفحص كل وجوه الحيـاة وترتب وتصنف ، وحيث التقدم المستمر المبهر ، هو وثيقة تستطيع الحضـارة الشرقية أن تفخر بها بحق • فالرجال الذين عبروا عن عبقريتهم فى هذا الكتـاب ، لا شك كانوا يتقدمون عصرهم فى فن الحكم العملى ، ولعلهم كانوا أيضا بتقـدمونه فى نظـراتهم الفلسفية الدينية • فأولئك الشعـراء ، وأولئك الفلاسفة يعرفون كيف يتعاملون مع عالم المادة ، فهم يلاحظون ويدونون ويرتبون ويحسبون ويجربون • فكل الآراء التى تعرض لهم يختبرونهـا على الحقـائق ، ويعبرون عنهـا بفصـاحة ولكنهم أيضـا يزيدونها بالاحصائيات •

وفى الغرب نحن ندين بالفعل للبينتز الذى فتح عيوننا على أهميـة الاحصائيات التى نعتبرها علما جديدا ، وعلى مدى الخدمة التى يمكن أن تؤديها • أما حكومة « أكبر » فقد استخدمتها بطريقة مثالية فى ادارتها منذ ثلاثة قرون مضت قبل لبينتز ، مع مبـادىء التسـامح والعـدالة والانسانية » •

الفصل الحادي عشر

الهندسة المعمارية والفنون التشكيلية

الهندسة المعمارية والفنون التشكيلية

كان تقدم الفن الاسلامى من أسرع ما سجله التاريخ ففى بداية التاريخ الهجرى لم يكن هناك فن اسلامى ، فقد نشأ عن انصهار الانماط التى وجدها العرب فى أثناء فتوحاتهم شرق البحر المتوسط ، وحالما تأسست سرعان ما انتشرت فى كل دولة الخلافات الواسعة الاطراف ، وقد طوروا قواعد هذا الفن الجديد وأثروه بالشعوب المختلفة التى كادت أن تكون جزءا من الامبراطورية الاسلامية حسب براعتهم القومية وللتأثيرات الخارجية التى خضعوا لها •

وعلى ذلك يمكن الخلط بين آثار القاهرة أو قرطبة وآثار سمرقند أو دلهى ، فالتوازن الدقيق بين الخطوط والحجوم والقيود المعمارية فى آثار حلب ودمشق تختلف عن الزخرفة فى قصور غرناطة وأشبيلية •

فعبقرية هؤلاء الرجال الخارجة من الصحراء تظهر بقوة فى الخطوط الهندسية فى فن الارابيسك والترميد المطلى بالمينا والمزخرف بالازهار فى أصفهان انما يعكس أحلام شعراء ايران •

ولكن هذا الاختلاف لا ينفى الوحدة ، فالفن العربى يختلف عن غيره من الفنون ، وهذه الوحدة فى الفن العربى نتيجة للوحدة الروحية فى المجتمع الاسلامى والحساسية الخاصة التى خلقتها تعاليم القرآن • فالديانة هى التى ساعدت على اضفاء هذه المميزات الروحانية السامية

على الفن الاسلامى ، والتى نعرفه بها • ويظهـر ذلك بشـكل خاص فى الفهم المعمـارى السليم عنـد الفنـانين المسـلمين وفى الرسـومات الارابيسكية • ومن الصعب علينـا أن نحكم على الفن الاسلامى ، لأنه لم يبق منه الا أقل القليل من العمائر غير الدينية ، فمن سوء الحظ لم يبق شيء من آثار بغداد القديمة ولكن توجد كتب تاريخية كثيرة فى وصف عاصمة العباسيين معجزة رائعة الجمال •

ان اجتياح المغول بقيادة هولاكو سنة ١٢٥٨م لها قد دمرها تماما ، حتى أصبح من العسير اليوم تحديد موقع أى قصر من قصـورها ، ولا يمكن لنا أن نتصـور روائع ألف ليلة وليلة الا عن طريق الوصف ، ولعله كان من الصعب أن نصـدق أن مثل هـذه الروائع وجدت حقيقة ، لولا ما نراه فى بعض الآثار مثل قصر الحمراء ، وقصر أشبيليه • ورغـم ذلك فان قصر الحمراء الذى لا يزال يبهر عيوننا بسبب روعتـه ، لا يمكن أن يقارن بتلك القصور التى اختفت الى الأبد ، وان كانت أوصافها لاتزال موجودة عندنا ، ومثال ذلك فى أسبانيا نفسها مدينة الزهراء التى بناهـا عبد الرحمن الناصر بناء على طلب محبوبته التى كان اسمها « الزهراء »•

ولذلك فان الفن الاسلامى المقدس فى المساجد هو الشاهد لنا على جمال روعه زخارف العمائر الاسلامية فيما مضى ، ولا يمكن نكران أثرها فى عمارة كنائس وقلاع العصور الوسطى •

وقد احتفظت اسبانيا من العصور الوسطى بالفنون الاندلسية التى كانت تحكم حكم العرب مباشرة ، وبالمثل فان تأثيرها على الفن الايطالى كان قويا الى حد بعيد نتيجة اسـتقرار العرب فى صقلية ، ودخلت الى

فرنسا عن طريق سبتمانيا ، ومؤلفات « اميل مال » ـ وهو حجة فى هذا الموضوع ـ تبين أهميتها •

ولقـد ألقى « مال » الضوء على وجوه الشـبه المثـيرة بين الفن الاسلامى وبعض عناصر العمارة الرومانية ، فهناك بعض الأشكال المميزة للفن الاسلامى ، فمثلا الاقواس ثلاثية الورقات ، والكأسية ، وهى حلية على شكل زهرة متفتحة ، وأعمـال الفسيفساء فى الطراز الشرقى يمكن رؤيتهـا فى الأوفرن فى كنيسـة نوتردام دى بوفى كليرمون • كمـا أن الفيسفساء على النمط الاسلامى والاشكال الزخرفية مثل التى ذكرت ، يمكن رؤيتها فى عدد آخر من الكنائس فى الأفرون •

وأثر مسـجد قرطبـة واضـح جدا فى كنيسـة نوتردام دى بو : «لا يمكن أن يكون من قبيل الصدفة أن يرى الانسان فى الكاتدرائية فى بو Puy الأقواس ثلاثيـة الورقات والاقواس متعـددة الفصـوص ، والاقواس التى على شكل حدوة الحصان ولا الاقواس الحجـرية ذات اللونين الموجودة فى جامع قرطبة ، والاصل الشرقى لكل هذه الاشـكال تشهد عليه الحروف العربية التى تحيط بالمدخل ، والواجهـات المميزة للمسجد فى قرطبة والخماسيات أيضا جميعها تذكرنا بالاندلس •

وفى أغلب هذه المقالة ذكرنا التأثير الاسلامى فى الفنون الصناعية ، ولكنه كان أقوى أثرا فى « الفنون الصغرى » فان الاشـياء الفـاخرة الترفيهية التى صاغتها أيدى الصناع المسلمين الماهرة قد بهرت الغربيين ، والكثير من هذه الاشياء لا يزال موجودا فى الكنوز الملكية أو الكنسية •

فكؤوس الشراب والاباريق المنحوتة فى البللور ، والاوان الزجاجية

المطلية بالمينا الملونة مما يرجع أنها كانت لها شهرة خاصة،وكذلك الاشغال الجلدية المنقوشة والاسلحة والسجاجيد والاقمشة وبخاصة الحـرير التى كانت تستخدم أجمل أصنافه فى الملابس الملكية والكهنوتية ، مثـل الملابس التى كانت تلبس عند تتويج أباطرة الدولة الرومانية المقدسة ، أو الاردية الكهنوتية الفاخرة التى ترى فى متحف الفنـون الزخرفيـة فى باريس •

ولم يكن للفن الاسلامى تأثير فى الفنـون الصناعية فحسب ، فان الدكتور ف•ديز فى كتابه القيم عن الفن الاسلامى ، يصف الاثر الذى تركه — حسب رأيه — فن النحت السلجوقى للاشياء الحية على أوروبا قائلا : « ان الاهمية الفنية الكبيرة لهذه الزخرفة التركية الاسلامية التى تشتمل على تصاوير لكائنات حية ، انما تظهر فى انتشـارها فى أوروبا الشمالية ، وتفسير هذا الاسلوب الزخرفى فى القرون الوسطى المتأخرة نجده فى تحول التجارة التى كانت تمر من آسيا الصغرى الى الشمال،أما حول جنوب الأورال أو غيرها ، ثم عن طريق ألمانيا الشرقية وبحـر البلطيق الى انجلترا • وقد تأسست المدن التجارية مثل همبورج ولوبيك وريجا ونوفجورود خلال النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، كما أن فلاديمير وسودال شرقى موسكو قد فاقتا كييف فى الاهمية • وواجهات الكنائس القديمة فى هاتين المدينتين مازالت تشهد على المدى الذى بلغه الاسلوب التركى الاسلامى فى الزخرفة فى أوروبا •

ودعنا نذكر فى لمحة عابرة الدور الهام الذى لعبه الفن الاسلامى فى الزخرفة فى أوروبا •

فى شجرة الحياة ، ذلك الرمز العزيز عند نخبة من الشرقيين التى تزين عادة بحيوانات متواجهة (كل منها يواجه الآخر) يمكن رؤيتها منحوتة على أعمدة والنحت البارز كما فى سان لوران فى جرينوبل ، سان اتيان فى بيفيــه ، ســان بريس فى كارتر ، نوتردام دى كوتير فى ليمانز وفى كنائس كثيرة غيرها • كما أن نفس الشىء يظهر فى المنسوجات ، والاوانى البللورية والزجاجية والمخطــوطات المرســومة ، ففى توراة تشارلس الاصلع توجد أسود على هوامش الشجرة المعكوسة ، أما فى انجيــل لوثير فتوجد صورة فهود ، وهى دليل آخر على الاصل الشرقى الذى استلهمه الفنان • كما نجد الحيوانات المتواجهة تدون شجرة الحيــاة فى أماكن أخرى مثل الترينيتية فى كاين ، وفى سان جرمين دى برى فى باريس وغيرها من الاماكن ، ومجموعات من حيــوانين كل منهــا يلتهم الآخر ، وحيوانات أسطورية مثل الجريفين (حيوان خرافى فى نصفه أسد ونصفه نسر) ، والطائر الذى له رأس انسان ، والنسر ذو الرأسين ، كل هذه مقتبسة عن الفن الاسلامى ، وكذلك الزهور المنمقة على شكل النخيل المصفور ، ظهرت فى العهد الكارولينى •

هذه جميعها أساليب أصيلة وعريقة من الســهل تمييزها ولكن فن الزخرفة الاسلامية يتكون أساسا من مجموعات من الخطوط ، ولذلك فمن العسير تحديد أن هذه المجموعة أو تلك قد نقلت الى الغرب فى أشــكال متحورة قليلا أو كثيرا ، ولابد أن نقل هذه الاشياء قد حدث لأننا نجد فى الفن الرومانى فى مواضع ظاهرة ، أنها مستوحاة من النقوش العربية لدرجة أنه من الممكن قراءة البعض منها ، وتوجــد أمثــلة لذلك فى فوت تشلهاك فى اللوار الأعلى،وعلى أعمدة فى تولوز وسان جيلوم فى الصحراء وفى نقش بارز فى متحف ليون ، وأحد أبواب كاتدرائية بيو محاط باطار من النقش العربى يقــول «ما شاء الله» • ومن العجيب أن تجــد أنه

فى المتحف البريطانى صليبا ايرلنديا من القرن التاسع منقوش فى وسطه «بسم الله» وأنه فى حجرة مقدسات كاتدرائية ميلان وعلى أبواب ســـان بيتر التى أهداها البابا يوجين الرابع توجد نقوش عربية حول رأس المسيح وعلى ثياب القديس بطرس والقديس بولس •

الفصل الثانى عشر

المـوسيقى

الموسيقى

ان المســلمين المتمسكين بالاســلام يتخــذون موقف التحفظ من الموسيقى ، فالعبادة الاسلامية لا تستخدمها . كما أن الفقهاء ومؤسسى المذاهب الاربعة كانوا يعادونها صراحة . أما الطوائف الصوفية مثــل المولوين (يعرفون فى الغــرب باسم الدراويش المترنحين) والدركاوة (ينتشرون فى شمــال افريقيا بشــكل خاص) وبعض الطوائف الصوفية فانهم يهتمون اهتماما بالغا بالموسيقى .

فانشاد القصائد الصوفية والرقص المصاحب للآلات الموسيقية أمر أساسى فى تدريبهم الروحى ، فالصوفيون يعتقدون أنهم يستطيعون أن يجدوا فى الموسيقى صدى الكلمة الأولى غير المخلوقة . فاعتادوا على استخدامها كمساعد للدافع الباطنى على أنســجامهم مع النغم الكونى والبلوغ الى معاينة الحقيقة الالهية .

أما الفقهاء وعلماء الشريعة فانهم يخشون القوة الانفعالية للموسيقى والسحر الذى لا يقاوم ، والذى يمكن أن يضرب على أوتار الاغراء فى قلب الانسان ؛ كما أنها تطلق العنان للعواطف الجامحة وتقود الانســان الى أسوأ الاضطرابات الأخلاقية .

ولكن رفض مؤيدى آراء الفقهاء ، لم يمنع من تطور الموسيقى فى المجتمع الاسلامى .

فمنــذ بداية الامبراطــورية الاســلامية ، كان للموسيقى مكانتها

الرفيعة فى بلاط بنى أمية فى دمشق ، وبنى العبـاس فى بغداد . فان هارون الرشيد وخلفاؤه منحوا الموسيقى نفس الرعاية التى منحـوها للعلوم والفنون الأخرى .

ومن الشرق ــ حيث تطورت ــ دخلت الموسيقى أسبانيا عن طريق المغرب وبناء على ماذكره ابن رشـد كانت أشبيلية هى المـكان الـذى ترعرعت فيه ، فتباحث الفلاسفة فى الانسجام الجمالى الموسيقى وتأثير الاصوات على النفس البشرية وقوتها على التعبير . يحفظ لنا التـاريخ أسماء مجموعة من أشهر الموسيقيين والمغنين ، ويكفى أن نذكر اسـم أبى الحسن على ابن نفيس ، الذى يدعى زرياب ، الذى بعـد أن بدأ نشاطه فى بغداد واصله ببراعة خارقة فى بلاط عبد الرحمن الثـانى فى قرطبة .

ويقول عنه ليفى بروفنسال : أثبت أنه مبتكر بارع فى الموسيقى فأقام كونسر فتوار سرعان ما تطورت فيه الموسيقى الاندلسية ــ التى كانت فى البداية شبيهة بالمدرسة الشرقية ــ والتى لاتزال حية فى كل مكان فى الغرب الاسلامى .

أما فى الجانب النظـرى ، فان من أول الكتـاب المسلمين ، الذين التفتوا الى نظرية الموسيقى ، كان الفليسوف البارز الفارابى ، فنحن ندين له بكتاب الموسيقى ، فالمؤلف نشأ اهتمامه بالموسيقى عن اهتمامه بالرياضيات والفيزياء كان أول من قدم تفسيرا علميا للصوت ووضـع قواعد لصنع الآلات الموسيقية .

«وبدأ العرب بدراسة السلم الموسيقى الصينى الايرانى» -Sou

gsanian ثم وضعوا السلم الطبيعى،وبلغوا درجة كبيرة من التقدم فى انفن الآلى وفى الآلات الكثيرة التى كانت فى ذلك الوقت : الربابة التى كان يستخدمها المنشدون ، والجيتار والعود والطبلة والرق والصــاجات وغيرها ، ووضعوا النماذج الأولى للبيانو والارغن •• وكل هذه الآلات أدخلها المسلمون الى شبه جزيرة أيبريا (اسبانيا والبرتغــال) والى أوروبا الغربية •

الهـــــوامش

(١) ليست العربية لغة دينية أو اللغة الدينية لجميع البلدان الاسلامية حتى تلك التى لا تستخدمها فى التخاطب ، كما يقول حيدر بامات وغيره من الغربيين ، وهـم معذورون ، ويبدو من العبث أحيانا افهام العقل الأوروبى بعض الحقائق التى لا تطابق ما يتصور . فالعربية ليست لغة دينية ، وانما هى لغة القرآن ، ولغة الحديث ، أى لغة رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ من حيث هو مبلغ للقرآن ، ومبين عنه . والفرق بين الكلامين شديد الخطر .

وذلك ـ كما يقـــول الاستاذ محمود محمـد شـاكر فى كتابه أباطيل وأسمار ـ «أن لفظ القرآن ، وهـو «كلام الله» ، المنزل على رسـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما هو ، وكما انحدر الينا بالتواتر والتوارث الذى منع عن أى لفظ فيه أن يدخله تغيير أو تبديل ، مرتبط أشد الارتباط، لا بعقائد المسلم وعباداته فحسب ، بل بتشريعه ، واقتصاده ، وعلمـه ، وفلسفته ، وحروبه ، وجهاده ، بل بتفاصيل حياته اليومية ، وخطـرات نفسه ، ولمحات تفكيره ، وآداب معاشرته ، لصديقه ، وزوجه ، وولده ، وأهله ، وعشيرته ، فلا يكاد يوجد شىء فى حياة الانسان المسلم الا وله فى القرآن هدى هو نص ، أو هدى هو استنباط ، لا فى خاص أمره ولا فى عام أمر المسلمين ، ولا فى علاقة المسلمين بالأفراد من غـير أهـل ملتهم ، أو الأمم التى لا تدين بدينهم ، بل فيما هو أقل من ذلك شأنا ، وما هو أعلى وأشرف . وفى كل ذلك يلتمس النص ، ويستنبط من النص أحكام للوقائع الحادثة التى تجد فى حياة الناس وللاستنباط أصول ضابطة ، بها يتبين الناس حين يختلفون ، أى شىء من أحكامهم المستنبطة هو الذى يقبل فيه الاختلاف ، وأيها الذى لا يقبل فيه الاختلاف ، لأن لفظ القرآن العـربى يأباه . وكذلك الشأن فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ اذا صح عندنا من الوجوه التى يصح بها الحديث» ص ٢٧٦ ـ ص ٢٧٧ .

اذن علوم المسلمين من فقه ، وعلم كلام وآداب وأحكام وكذلك كتب الفلاسفة المسلمين ، وسائر ما كتب المسلمون فيه من فن وعلم ، كل ما فيها منتزع من لفظ القرآن ولفظ الحديث ، باستنباط قائم على أصول ضابطة لا مثيل لها فى منطق أو غيره . ومثل هذه الصورة فى لغة القرآن والحديث لا تكاد تتضح للمستشرقـين ، لأن عهـــدهم بالتـوراة والانجيـل أنهمـا

كتابان معزولان عن هذه الحياة ، من حيث هما نص شامل لتفاصيل المعانى التى يحتاج اليها البشر فى جميع معاملاتهم اليومية ، وفى خاص شؤونهم البادية والمستورة • فهم والغربيين أيضا لا يرون «القرآن والحديث» الا من خلال معرفتهم بكتابى الدين المسيحى ، فيرون القرآن كالانجيل مثلا ، أخبارا وعظات ، وشيئا يتلى فى بعض الصلوات • والتقيد بلفظه غير مفهوم عندهم ، على الوجه الذى نعرفه نحن من التقيد بلفظ القرآن ولفظ الحديث فى استنباط الأحكام • أو أشبه «اللغة الدينية» ، فان الداعى اليها سوء فهم الدعاة والمبشرين والمستعمرين لواقع المجتمع الاسلامى فى جميع أقطاره ، وهذا سخيف ، فالعربية ليست لغة دينية بالمعنى الذى تعد به «اللاتينية» مثلا «لغة دينية» •

(٢) يقول الحديث : «يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء» أخرجه ابن عبد البر من حديث أبى الدرداء بسند ضعيف ، والأرجح أنه قول للحسن رحمه الله ــ يقول : «يوزن مداد العلماء بدم الشهداء فيرجح مداد العلماء بدم الشهداء» •

وهناك أحاديث ذات سند أقوى عن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى فضل العلم والعلماء منها قوله : «العلماء ورثة الانبياء» •

أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه من حديث أبى الدرداء • وقوله : «فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى» • أخرجه الترمذى من حديث ابن ماجه ، وقال حسن صحيح •

(٣) حديث «اطلبوا العلم ولو بالصين» أخرجه ابن عدى والبيهقى فى المدخل والشعب من حديث أنس ، وقال البيهقى : متنه مشهور ، وأسانيده ضعيفة • وهناك أحاديث ذات سند أقوى فى فضيلة التعليم • يقول الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ : «من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا الى الجنة» • أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة •

وقد اختلف الناس فى ماهية هذا العلم الذى يقصده رسول الله بقوله : «طلب العلم فريضة على كل مسلم» • فقال الفقهاء : هو علم الفقه ، اذ يعرف به الحلال والحرام • وقال المفسرون والمحدثون : هو علم الكتاب والسنة ، اذ بهما يتوصل الى العلوم كلها • وقالت الصوفية : هو علم الاخلاص وآفات النفوس • وقال المتكلمون : هو علم الكلام • الى غير ذلك من الأقوال التى ليس فيها قول مرضى ، والصحيح أنه علم معاملة العبد لربه •

راجع فى كل هذا : مختصر مناهج القاصدين لابن قدامه المقدسى ، ص ١٥ ، ص ١٦ ، وأيضا فى نفس المعنى راجع : احياء علوم الدين للامام أبى حامد الغزالى ، طبعة دار العلم ، ص ١٨ •

فهرست تحليلى للموضوعات

الفنية للطباعة والنشر
٤٨ شارع جوده - راس التين - الاسكندرية
تليفون ٨٠٣٢٥٠

الكتـــاب الثــالث

الفــــكر الســـياسى فى الاســـــلام

هــذا الكتـاب يقــول ٠٠٠٠

أما حضارة الاسلام فكانت أعرق وأكثر كمالا ، وظلت خالدة ، وباقية عبر العصور تقاوم دائما وأبدا العبث والركود وعوامل الاهمال والهجوم والانكار والجحود ، وهذا التراث الاسلامى الخالد الماثل أمام العيان يحكى بعض جوانب الأمجاد الاسلامية ، بصورة تدعو للاعجاب ٠

والحديث عن حضارة الاسلام لا ينبغى أن يتصوره القارىء على أنه من قبيل الماضى الذى حفظه سجل التاريخ وطواه ، وانما حضارة الاسلام معاصرة دائما ودوما ، فعناصر القوة والأصالة فى هذه الحضارة مستمدة من الدين الاسلامى الحنيف الذى حثنا على التفكير والتأمل فى كل زمان ومكان ٠

على أنه يمكن القول : ان انتشار الاسلام هو الذى أوجد الامبراطورية الاسلامية العظمى تاريخيا وطبعها الى يومنا هذا بطابعه وروحه ٠ فالاسلام كما نعلم فرض نفسه عقليا ووجدانيا على كل الشعوب التى احتوتها الامبراطورية الاسلامية ٠ وحين توالت الفتوحات الاسلامية شرقا وغربا ، شمالا وجنوبا لم يلبث الاسلام أن منح كل هؤلاء وأولئك المثل الأعلى مما جعلهم يبذلون أنفسهم رخيصة فى سبيل قيام الامبراطورية الاسلامية ٠

ان استعراض تاريخ العالم الاسلامى ، وانجازات الحضارة الاسلامية، لا ينبغى أن يجعلنا نعيش فى الماضى ، وانما المقصود باستعراض هذا الفكر أن نأخذ العبرة والدروس من التاريخ ٠٠ أن نحاول التقد[illegible] نعيش على ما تركه الاسلاف ٠ ففى التاريخ ودروسه ، عظة وعب[illegible] يطالع صفحاته بدقة ٠

المـــؤلـ[illegible]

